مقيـــاس الحضـــارة

بقلم اميـــل توفيـــق

عندما نتحدث عن الحضارة في مجتمع معين انما نشير الى الصفات المورفولوجية المجردة لتلك الحضارة ، اي الى الصيغ النوعية للسلوك والفكر ، للمنطق والعمل ، للمثل الاجتماعية والنظم ، ولما ينتج عن نواحي النشاط التي يسهم فيها بصفة كلية او جزئية اعضاء المجتمع المعين .

حقيقة يختلف بعض علماء الانتروبولوجيا في النظر الى الحضارة فبعضهم يعرفها بانها مجموعة انواع السلوك الانساني (الواقعي) التي يحققها مجتمع معين باستخدام نظم واعمال وادوات معينة في ذلك المجتمع . وهذه هي النظرة الواقعية(١) .

اما البعض الاخر فلا يرى الحضارة في السلوك الانساني، ولكنه يراها فيما وراء السلوك .. في الروح التي تكمن وراء المادة الحضارية . او ان الحضارة هي مركب عقلي تكون من خلق التاريخ ، فهي عمليات اختيارية صاغت ردود الانسان وانعكاساته في قوالب خاصة ، بالنسبة للمؤثرات الخارجية والداخلية ، وهذه هي النظرة المثالية(٢) .

ولكن الرأي الغالب اليوم كما يصفه دافيد بيدني(٣) في كتابه (٤) هو ان الحضارة تجمع في مضمونها الرأيين او الفكرتين ، ذلك ان الحضارة تتضمن السلوك المكتسب ، كما تتضمن ايضا المثل الفكرية والفنية والاجتماعية التي يحتويها سلوك المجتمع وتعبير اعضائه .

وبهذا المعنى نحن نفهم ان الحضارة الانسانية تعني اشكال السلوك والفكر ، وعملياتهما التي اكتسبها الانسان خلال تقدم امكانياته الفطرية، والحضارة بالنسبة للامكانيات الفطرية تعتبر شيئا ذاتيا ينسب الى قوة الانسان الشخصية، فهي صفات تختص بوجوده المجرد . ولكن عملية الحضارة تتضمن ايضا ، بجانب تقدم هذه الامكانيات ، تفاعل الانسان مع اشياء عديدة تحصل عليها خارج نطاق الامكانيات الذاتية ، هي النواتج الحضارية غير الذاتية .

ومن هذه النواتج الآلات والادوات والمواد التي اخترعها الانسان لاستخدامها واشباع حاجاته وهي المسماة(٥) . وبعض العلماء يسمي هذه المواد التي يستخدمها مجتمع معين بالحضارة المادية له(٦) . ونظرا لان هذه المواد غير ذاتية فهي ـ كما يصفها هربرت سبنسر ـ مواد فوق عضوية(٧) .

وتتضمن النواتج الحضارية ايضا حقائق العقل(٨) وهي اللغة والتقاليد والآداب والخلق والذوق الجمالي والمثل الدينية ، كما تتضمن ادوات واساليب البحث العلمي ، فهذه جميعها تعكس الظواهر العقلية .

وتتضمن النواتج الحضارية كذلك حقائق المجتمع(٩) كالمعايير الاجتماعية والتنظيمات التي تهيمن على العلاقات بين الافراد في المجتمع والعلاقات بين المجتمع الواحد وغيره من المجتمعات الاخرى .

فمجموعة انواع العدة المادية والعقلية والاجتماعية هي عوامل فوق عضوية وهذه جميعها تسمى بالتراث الاجتماعي(١٠) ، فالانسان بجانب انه يولد في بيئة جغرافية معينة ، فهو ينشأ في بيئة اجتماعية خاصة ، لها تاريخ معين ، ولها تقاليد معينة ، وميراث خاص يرتبط بها جميعا بالتعلم والتكيف وبالتأثر والتأثير والتفاعل كعضو من اعضاء المجتمع .

وبصدد التراث الاجتماعي نجد الواقعيين ـ كما يمثلهم فرانز بواس(١١) يؤيدون فكرة ان الحضارة عبارة عن العدة المادية ومعها عادات وتقاليد ـ اما المثاليون ، كما يمثلهم ماريت وردفيلد وكاسيرر(١٢) فيؤيدون الفكرة القائلة ان التراث الحضاري يتضمن بصفة اساسية الاراء والافكار او التعبيرات الرمزية وذلك لان الرموز يمكن انتقالها وانتشارها، وعندهم ان التراث هو هذه المدركات والمفاهيم اي الافكار والمثل . وبالطبع هم يقصرون دراسة الحضارة على الظواهر والمثل العقلية خلال المراحل التطورية .

وحق لنا ان ننظر الى مسألتين هامتين : هل نبحث الحضارة في مجتمع معين من زاوية واقعية ، شخصية ، كحالة من حالات السلوك والفكر الناتجين مباشرة عن عملية التربية لهذا المجتمع ؟

او ان نبحث الحضارة في ذلك المجتمع ـ اوفي المجتمع الانساني باكمله ـ من زاوية لا شخصية، او فوق عضوية ؟ اي نبحث الحضارة من زاوية التراث الاجتماعي الذي انحدر الينا عبر التاريخ ؟

يختلف العلماء في الاجابة على هذا التساؤل .

فيكتب موريس اوبلر مفسرا ايديولوجية الحرب العالمية الثانية فيقول :

انها حالة من حالات الصراع الناشب بين المفهومين العالمين : المفهوم العضوي والمفهوم الحضاري .

اما مالينوسكي فيقول : ان الحضارة الانسانية حضارة عضوية بمعنى انها تنزع الى غرض اشباع حاجات الانسان ومطامحه النفسية والبيولوجية . وعلى ذلك فهناك علاقة بين نوع الحضارة التي يعبر بها الانسان او يحياها ـ وبين نوع التركيب العضوي والنفسي الذي ينتمي الى هذه الحضـــارة .

ان العوامل الجغرافية والوراثية والبيئية الصحية ، عوامل هامة عضوية ترتبط حتما كاساس لنوع الحضارة التي تظهر في مجتمع معين ، فالاسس العضوية للحضارة لا

1) Realistic 2) Idealistic 3) David Bidney 4) Theoretical Anthropology 5) Artifacts 6) Material culture 7) Super organic 8) Mentifacts 9) Socifacts 10) Social heritage 11) Franz Boas 12) Marett, Redfield, Cassirer 13) dynamic 14) genuineness 15) Sapir

غنى عنها لبحث التشكيلات العامة والانواع المغايـــرة للحضارات ، فالعوامل العضوية هي الشروط الماديـــة للعمليات الحضارية .

ولكن النظرية العضوية تصبح نظرية خرافية عندمـــا نطبقها على اساس اختلاف الاجناس ، فالجنس الارقى : على هذا الاساس الخرافي ، يتحتم ان يكون ارقى حضاريا ومن ثم جاز له ان يحكم غيره .

والنظرية الاخرى المضادة اي فوق العضوية ، تغفـــل العوامل العضوية اغفالا تاما وتركز اهتمامها الى العوامل التاريخية والبيئية مثل الانتشار ومثل قوانين التقـــدم التلقائي ، فالمجتمع والحضارة فى عرف هؤلاء الحضاريين فوق العضويين ، هي وحدات فوق نفسية تتابع وتتطور دون ما نظر الى طبيعة بشرية عضوية او نفسية للافـــراد الذين يكونون المجتمع ، وهذا هو العامل الخرافي المضاد ، اي اغفال العنصر الانساني المتفاعل .

والحق انه لا ينبغي ان يوجد اعتراض بين النظرتين اذ ينبغي ان ندرك اننا نعالج المسالة من مستويين مختلفين. بل هما عاملان يكمل احدهما الاخر فى عملية الحضارة ، فكل منهما اذا اخذ منفردا ادى الى قصور الصورة الحقيقية للحضارة . فالشروط العضوية هي التي تهيىء للتقـــدم الحضاري كما ان التقدم فوق العضوي بالتالي يؤثر فـــي الشروط العضوية ، والعملية تبدو دائرية عـــلى اساس العمل على مستويين مختلفين ولكن متكاملين .

يكتب بيدني فيقول ان التقدم فوق العضوي «اللاشخصي» يلزمه حقا تفاعل شخصية المجتمع وتلزمه الشروط العضوية. فان العدة المادية والعقلية والاجتماعية ، هي فى حد ذاتهـــا خاملة ساكنة ، دون تفاعل المادة العضوية ، هي بمثابة راس المال للحياة الحضارية . ان التقدم الحضاري (الفـــوق عضوي) حقيقة يتضمن الاسباب المادية والشكلية للتقدم ولكنها ليست ابدا الاسباب المؤثرة .

ان على اعضاء المجتمع ان يتفاعلوا مع العوامل الحضارية. وينكر بيدني ان لهذه العوامل الحضارية فـــوق العضوية قوانين تفوق المستويات العضوية او انها تتطور دون مـــا قصد انساني . انما التفاعل هو الذي يؤدي الى حركـــة الحضارة ، والى قوتها الذاتية .

والحق اننا نحن الذين نحقق باختيارنا اي العوامـــل ينبغي ان نبقي وايها ينبغي ان ندع . وبهذه التفاعلات يمكن ان نفهم معنى التقدم الحضاري ان التراث الاجتماعي ، بمعناه الفوق عضوي ، يفشل تماما فى ادخال معاني الجدة والتغير فى الحياة الحضارية . ان الحضارة لا تعطي فحسب، انها دائما فى التكوين ، فهي تتضمن تغيرا واستمرارا . اي تتضمن خلقا الجديد ، بجانب الاحتفاظ بالعرف والتقليد القديميـــن .

ولسنا نفهم وجود صيغة او تشكيل او تركيب تاريخي بغير ان ندخل فى اعتبارنا هذين العاملين وهما الاستمرار والتغير ، فالتاريخ لا يعني سجلا لحوادث تالية ، بل يعني استمرارا داخليا وعلاقات منطقية ترتبط بها الحوادث . كما ان التاريخ يعني انبثاق حوادث وتكوينات جديدة وهي ليست ابدا فى اساسها ترجع الى قوى مادية فوق عضوية فالعوامل الانسانية المتحركة (١٢) التي تتضمن اختراعات وابتكارات مبدعة وانعكاسات البصيرة الواعية المدركة ، هذه العوامل تدخل فى تفاعل مع العوامل الاخرى الجبرية المحافظة ، لتتكون منها جميعا منابع العمليات الحضارية .

وعلى ذلك فهناك المقياس الذي تقيس به الحضارة هـــو « حقيقية الحضارة(١٤) » . . يقول سابير(١٥) : ان الحضارة الحقيقية هي التي تتكامل عناصرها وتعنى شيئا للفـــرد (وهذه هي حقيقية الحضارة) فالحضارة الزائفة هي التي لا تعنى شيئا شخصيا للفرد اذ انها لا تحقق له رغباتــه (النامية) و لاتجعله يشارك فى الحضارة الاجتماعية . وهو لذلك يقول ان حضارة القبيلة ، او ما قبلها ، هي حضارة اقرب الى حقيقية الحضارة من الحضارات الغربية التـــي اعتمدت على آلية الصناعة .

وبعكس النظرة الاجتماعية ، اي نظرة علم الاجتماع ، التي تعتبر الحضارة فوق العضوية اسبق منطقيا ونوعيا من الحضارة الفردية ، فان ادوارد سابير يعتبر الحضارة الفردية اسبق واهم من الحضارة اللاشخصية ــ او فوق العضويـــة ــ .

فى هذا المعنى ، تكتب النيويورك تايمز :

ان الديموقراطيات التي تعمل حكوماتها بـــوحي رضى المحكومين ــ على رغم امتلاكها للقوة التي تصـــدر بهـــا القوانين وتبرم بها المعاهدات ــ ان هذه الديموقراطيات لا ترى ان القوانين او المعاهدات تحقق الاغراض المنشودة الا اذا اجازها اكبر عدد من المحكومين . ومعنى ذلـــك ان الحضارة الشخصية او العضوية هي الغاية ، وان الحضارة اللاشخصية لا معنى لهـــا دون الشروط العضوية ، ودون تفاعل المجتمع .

القــاهرة — اميــل توفيــق

امـــي

ثريـا ملحس

تروح .. تجـيء
امـــي
وصوت حنـون
يـــدوي
لماذا تـدوي بهمس
رفيـــق
لمـاذا ؟ الا تستريـح
امــي ؟
فـــان قلت آه
فدتني بقلب رفيق
وان جئت اشكـــو
ذهلـت
لان
امــي
برمش تزيـل الكـآبه
وامي عيـون عجيبـه
تشع بريقـا
وفي وجنتيهـا
تجاعيـد حبـه
وفي حاجبيهـــا
عتـــاب لـرب
تخـــاف المنيـه
وتبغـي الخـــلود
لاولادهـــا ، للصغـير
وتعطو ذراعـا رحيبـه
وقلبـــا عماره
تروم الحـــاره
لتحمـي ضلوعـا حبيبـه
صغارا كبـارا

في الادب العربي

بقلم محمد فريد ابو حديد

يتحدث النقاد والادباء عن الفن الادبي وهل ينبغي ان يكون المعول فى تقدير قيمة العمل الادبي على ما يمتاز به فى اسلوبه او ان يكون المعول فى ذلك التقدير على قيمة موضوعه كذلك بالنسبة الى المجتمع والى الانسانية ، ولست اقصد بحديثي هذا ان اتعرض لما يسوقه طرفا المناقشة من الحجج ، فهي معروفة كثرت المجادلات فيها . غير ان الذي يبدو من هذه الاحاديث ان موطن الخلاف بين الجانبين المتناقشين معنى اخر خفي لم يظهر واضحا فى ثنايا المناقشات فاردت فى كلمتي هذه ان احاول اظهار هذا المعنى الخفي بتوجيه بعض نظرات الى ادبنا العربي لعلها تستبين حقيقة الصلة بين الموضوع فى الادب وبين الحال التي كان عليها المجتمع في العصور المختلفة ، فان الكشف عن تلك الحقيقة جدير بان يزيل كثيرا من الغموض الذي يحيط ببعض ما يبدى من الاراء .

ونقطة البداية التي ابدا منها هي الاشارة التي اوردها الزميل الجليل الاستاذ محمود تيمور فى حديث سابق له حين ذهب الى ان الاديب لا يستطيع الا ان يكون فردا فى المجتمع وان انتاجه لا يمكن الا ان يكون متصلا بالمجتمع . واني اضيف الى هذه الاشارة معنى اخر هو ان الانتاج لا يمكن ان يسمى انتاجا ادبيا إلا اذا توافر له الاسلوب الادبي الفني . ومعنى هذا ان كل انتاج ادبي لا بد ان يتوافر فيه الاسلوب الفني والاتصال بالمجتمع معا . وعلى هذا فان الشعار الذي تدور المناقشات حوله وهو « هل الفن للفن ام هو للمجتمع » . يبدو شعارا خاليا من الدلالة اذا كان المقصود منه المقابلة بين قيمتي الاسلوب والموضوع فى العمل الفني، لان القيمتين لا بد ان يتوافرا معا لكل عمل فني

واذن يكون المعنى الحقيقي الذي تدور المناقشات حوله هو ان بعض النقاد يذهبون الى ان الاديب مطلق الحرية فى اختيار موضوع انتاجه سواء كان مما يقبله المجتمع ويرضي مثله العليا وقيمه المعنوية او كان مما يرفضه المجتمع وينكر مثله وقيمه ، على حين ان البعض الاخر منهم يذهبون الى ان الاديب الحق هو الذي يختار موضوع انتاجه مما يقبله المجتمع ويعزز قيمه ومثله العليا .

ولا يخفى ما يحيط بالراي فى كل من الجانبين من غموض يستحسن القاء بعض الضوء عليه حتى يمكن ان يسلم من التعثر . وقد رايت انه مما قد ينير سبيل الراي ان استعرض الموضوع الشعري فى عصور ثلاثة وهي العصر الجاهلي والاسلامي الاموي والعباسي الاول ، وان اختار لذلك الاستعراض ما يمثل الاتجاه الاكبر فى كل من هذه العصور وهي تمثل ثلاثة ادوار من مراحل التطور الحضاري للمجتمع العربي .

واما النتائج التي يمكن الوصول اليها من هذا الاستعراض فقد رايت من المستحسن تاجيلها الى نهاية الحديث .

العصر الجاهلي

كانت حياة اجدادنا العرب فى العصر الجاهلي مطبوعة بطابع بيئتهم الصحراوية اذا استثنينا بعض البقاع الخصبة فى اليمن والمدن المتصلة بالعمران كالحيرة .

وكان النظام القبلي دعامة حياتهم بصفة عامة ، واول مميز لهذا النظام هو الولاء الكامل المتبادل بين الفرد وقبيلته، وهذا الولاء هو الاتصال النفسي بين الفرد ومجتمعه . فكان الشاعر العربي فردا من قبيلته ويصدر فى مشاعره وفى انشاده عن شعوره القوي بالصلة التي تربطه بقبيلته . فهو يتغنى بمآثر قومه وبانتصارهم فى الصراع مع القبائل الاخرى ويشيد بفضل ابطالهم ويفاخر ببطولته فيهم ، وقد يهجو خصومهم أو يعاتب حلفاءهم ، وهو فى كل الاحوال يعبر عن مشاعره كفرد متصل اتم الاتصال بمجتمعه .

وقد خلف لنا العصر الجاهلي بعض صور الدفعات العاطفية القوية التي اثارتها مواقف قومه ومواقفه فى قومه، وهي تعبر لنا تعبيرا صادقا عن معاني الصداقة والعداوة وعن المحبة والبغضاء وعن الاجلال والازدراء وعن الشجاعة والمروءة واضدادهما وفيها ينطوي سجل حافل بما كان العرب من قيم فردية واجتماعية تتصل بمسالك الافراد والجماعات فى الحياة الخاصة والعامة .

فالشعر الجاهلي مثال للانتاج الادبي الذي يعكس لنا تجاوبا كاملا بين الاديب وبيئته البشرية ... والى جانب هذه الخاصة كانت طبيعة الصحراء لا تكاد تسمح للعربي بما يرفه عنه فى حياته القلقة المتحفزة للصراع الا من ناحيتين يتنسم منهما البهجة والانس : اولهما جمال المراة والايناس الذي يجده الفرد فى مجالس السمر بين الاصدقاء وما كان يشيع فيهم من النشوة على اثر معاطاتهم الخمر. واما الناحية الاخرى فكانت مشاهد الطبيعة الطلقة التي تبعث السلوى الى قلب المحزون والمهموم . وكانت الحياة امام العربي حياة حرة يتعامل فيها احرار لا يعترفون بالقيود ولا يطيقونها ، فلم يكن فيها حدود غير ما تعارف عليه المجتمع من قواعد الولاء بالنسبة الى القبيلة وقواعد الشرف والمروءة بالنسبة الى الفرد . وكان للمراة العربية فى الجاهلية مكانة الفرد الحر كالرجل ولهذا كان الحب بين الرجل والمراة يتسم بالتقدير المتبادل بينهما، واذا استثنينا بعض ما جاء فى قصائد بعض الشعراء كالاعشى وامرىء القيس امكن ان نقول ان شعر الغزل الجاهلي يمتاز باحلال المراة الحرة محلا رفيعا فى قلب صاحبها : ففيه من صور

الحب الرفيع ما يسمو الى أعلى مراتب الشعر فى الآداب العالمية .

ومن اليسير ان ندرك العلة فى انحراف امثال الاعشى وامرىء القيس احيانا عن مذهب شعراء العرب الجاهليين فى الحب . فقد كان الاعشى شاعرا مرتزقا جوالا فى الآفاق يتردد بين عمان وحمص واورشلم وذهب الى النجاشي فى ارضه والى ارض النبيط وارض العجم ، ونزل بنجران واعالي السرو فى اليمن . وكان فى هذه البلاد يتصل بالحياة المترفة وما فيها من معاهد اللهو والمجون الحضرية . واما امرؤ القيس فكان منذ مطلع شبابه ضحية لالتواءات نفسية كثيرة ادت به الى الخروج على قومه والانطلاق فى الارض شريدا مع طائفة من الخلعاء الذين تبرات منهم قبائلهم لخروجهم على ما تعارفوا عليه .

فكان لمكانة المراة عند العربي اثر واضح فى الموضوع الشعري فكان الشاعر يصف وقوفه بديار الحبيبة اذا هي نزحت عنها ويتغنى باناشيد من اصدق ما صدر عن الشعراء فى عصر من العصور وهو فى تعبيره الباذج الصادق عن مشاعره فى هذه الوقفات يصور لنا لوحات فيها ابدع تمثيل للعاطفة الانسانية الاولى .

وكان انطلاق العربي فى الصحراء يتيح له ان يرى بعينه الدقيقة الملاحظة ما كان يضطرب فى الصحراء من حياة الحيوان عامة وحياة الوحش بخاصة ، وما كان يجاهد الطبيعة القاسية من نبات او زهر ، فكان يصور فى شعره ما يحسه من بهجة حين يرى الزهرة اليانعة بين الرمال وحين يرى الظبية تحنو على وليدها او تنفر ناجية اذا احست الخوف . وكان يصور ما تجيش به نفسه من الرحمة او الاعجاب حين يرى الصراع بين الاحياء كالبقرة الوحشية حين تستبسل فى الدفاع عن نفسها ضد كلاب الصيد او الذئاب التي تحتوشها او كالعير الوحشي حين يدفع اتانه دفعا شديدا نحو الماء اذا اشتد عطشهما . فتصوير مشاهد الطبيعة الطلقة من اروع ما سجله الشعر فى لغة من اللغات وهو يمتاز دائما بالصدق وقوة ما فيه من تعبير عن العاطفة .

اما التغني بمجالس الخمر فكان فى اكثر الحالات ــ اذا لم نقل فيها جميعا ــ لا يزيد على التمهيد لوصف ما يمتاز به الشاعر من الفتوة والكرم والبطولة فى مواقع القتال .

فالظاهرة العامة للشعر الجاهلي انه كان ينبع مما تبعثه الحياة فى الشاعر من الاحاسيس وهي جميعا متصلة اوثق الاتصال ببيئته وبولائه لقومه وتعلقه بقيم السلوك الفردي والاجتماعي التي تعارف عليها قومه واملتها عليهم طبيعة قاهرة ونظام اجتماعي مستقر . وقلما نجد فى الشعر الجاهلي ما ينم عن انطواء الشاعر فى نفسه او انعزاله عن قومه او الحقد عليهم ، حتى ان الهجاء الجاهلي نفسه لم يكن سوى تصوير تقدي يوجه الى قوم أو الى فرد لخروجه على القيم السلوكية الفاضلة فى نظر اهل العصر.

فلم يكن فيه الا هفوات قليلة من المثالب المقذعة المسفة التي كثرت فى شعر العصور الاخرى .

وكان الاعشى من اكثر الشعراء هجاء ولكنا لا نكاد نرى فى هجائه ــ وهو المرتزق بالشعر ــ ما يخرج عن حدود النقد التي اشرت اليها . وكان من اشد ابياته فى الهجاء

تبيتون فى المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

حتى لقد قيل ان علقمة بكى حين سمع ذلك البيت وجعل يقول فى الاعشى : « قاتله الله ! انحن كذلك ؟ »

وقد نجد فى الشعر الجاهلي امثلة للتامل الفكري المجرد. واكثر ما نجد ذلك فى شعراء الحضر مثل عدي بن زيد او من فى حكمهم مثل الاعشى ، وذلك التفكير لا يتعدى حدود العبر الدالة على زوال الحياة وغرورها وتداول المجد بين الدول . .

غير ان شعر الجاهليين لا يخلو من تامل الحياة من جانبها الواقعي المتصل بالحياة فى المجتمع ولايضاح ما نقصد نورد مثالا واحدا وهو قول دريد بن الصمة فى رثاء اخيه فهو لا يقتصر على وصف بطولة اخيه ووصف اقدامه هو حين اندفع بين الفرسان للدفاع عنه ، بل يعرج على معاني الولاء للقبيلة والتضامن معها فى رشدها وغيها ويشير الى المثل العليا التي كان اخوه يتمسك بها فهو قليل التشكي للمصيبات ، حافظ من اليوم اعقاب الاحاديث فى غد ، وهو قنوع يكتفي باقل الزاد ، والزاد حاضر ولا يعبأ بما يلبس مع انه كريم يجود بما فى يده ويزيده سماحا واتلافا لماله تنكر الدهر له واشتداد الظروف عليه .

فالشعر الجاهلي يمثل ادب عصر من عصور الحياة العربية كان يسوده التضامن والولاء بين الفرد والمجتمع وكان لذلك يتصف بالصدق فى تصوير العواطف كمايتصف بالانطلاق النفسي الذي لا يشوبه التواء او انطواء .

ومما له صلة بهذا المعنى ان شعر صعاليك العرب انفسهم لا يشذ عن انماط الشعر الجاهلي عامة فهؤلاء كانوا مع خروجهم عن مجتمعهم لم يخرجوا عليه بل كانوا يتمسكون بمثله العليا فى الكرم والشجاعة والمروءة ومن امثلتهم عروة بن الورد والشنفري وتابط شرا .

العصر الاسلامي الاموي

وقد جاء الاسلام فاضاف الى الحياة العربية اضافات كثيرة من القيم الانسانية والمثل العليا وانكر من قيم الجاهلية ما كان يشوه حياتها كالمبالغة فى القسوة والصرامة والاندفاع مع شعور العصبية القبلية الضيقة كما انكر الخمر واحاط علاقة الرجل بالمراة بطائفة من الحدود التي تكفل سلامتها من العبث . ثم وجه العرب الى حياة جديدة قوامها الوحدة بين القبائل والمساواة بين الافراد من كل الطبقات والاجناس وجعل مقياس التفاضل بينهم ما يتمتع به كل منهم من

صفات الانسانية . وحملهم مسئولية نشر دعوة الحريــة والمساواة فى امم العالم .

فشغل العرب حينا بمواجهة الدين الجديد حتى دخلوا فيه ثم شغلوا حينا بمواجهة الحوادث الكبرى التي اعقبت موت النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم خرجوا من جزيرتهم فى بعوث الفتح لنشر رسالة الاسلام فكانت هذه المشاغل سببا فى قلة ما روى من الشعر العربي مدة تقرب مــن ثلاثين او اربعين عاما .

ومن اظهر آثار الاسلام فى شعر هذه المدة انه خلا مــن ذكر الخمر فى التشبيب بالمراة ، حتى لقد قيل ان احــد الشعراء وهــو حميد بن ثور الهلالي اراد ان يتغنى بحبه فكنى عن الحبيبة بالسرحة فقال :

سقى السرحة المحلال والابطح الذي ... بـه الشرى غيث مدجن وبـروق

وقد انف اهل المراة من ذكره لها مــع اخفائها وراء (السرحة) فعابوه بذلك فرد عليهم قائلا :

تجرم اهلوها لان كنت مشعــرا ... جنونا بهـا يا طـول هذا التجرم
وما لي من ذنب اليهم علمتــه ... سوى انني قد قلت يا سرحة إسلمي
بلى فاسلمي ثم اسلمي ثم اسلمي ... ثـلا ث تحيات وان لـم تكلمي

وكان الشعراء من العرب بغير شك لا ينقطعون عن الانشاد حين تتحرك نفوسهم فى موقف من المواقف وهم يتساحون فى الارض على بعوث الفتح ولكن ما وصل الينا من هــذه المقطوعات قليل وهو يشبه الشعر الجاهلي فى صدقــه ودلالته على الولاء الكامل بين الفرد ومجتمعه .

وجاءت دولة بني امية بعد نحو اربعين عاما من الهجرة النبوية وكان لها اثر كبير فى توجيه الامة العربية الى وجهة جديدة ، وكان للاحداث التاريخية الكبرى التي وقعت فى مدة هذه الدولة اثر كبير فى توجيه الشعر كذلك مــن ناحية موضوعه .

ومن الظواهر الجديدة التي طرات على الشعر العربي عند ذلك ان ولاء كثير من الشعراء انصرف الى حزب من الاحزاب التي ينتمون اليها ، بعد ان كان ولاء الشاعر من قبل متجها الى قبيلته وما كان اكثـر الاحزاب المتطاحنة طـوال ذلـك العصر .

ولم يكن ولاء الشاعر الاموي لحزبه مثل ولاء الشاعر الجاهلي لقبيلته فقد كان الشاعر الجاهلي ينشد منطلقا فى التعبير عن مشاعره غير متكلف فيه ، كما كان فى العادة غير مرتزق بشعره . ولكن الشاعر الاموي كان فى كثير مــن الاحوال مرتزقا فى ولائه لحزبه . وكان لذلك يعوض عــن نقص حرارة الولاء بزيادة التانق وبزيادة العنف فى تعبيره سواء فى ذلك المغالاة عند المدح والاقذاع عند الهجاء ،فخرج كلا المدح والهجاء عن حدود الصدق ، وبعد ان كــانت المفاخرة بشواهد الحوادث الجارية اصبحت تعتمد عــلى ذكر المآثر السابقة لابطال الجاهلية الذين ينتمي المفاخر الى قبائلهم . ومن هناك احيا الشعر عصبية القبائل بعــد ان نهى الاسلام عنها ووجه العرب الى الوحدة الشامــلة ، وقصائد الشعراء الثلاثة الكبار -جرير والاخطل والفرزدق- ملأى بغبار المعارك القبلية . على ان ولاء الشعراء للاحزاب لم يكن ثابتا فى كثير من الاحوال لانهم كانوا مرتزقة بالشعر ولان الاحزاب كانت عرضة التغير . فقيل مثلا ان جريرا لم يكن مواليا لبني امية فى مطلع حياته ثم توسل باحــد الولاة كي يوصله الى الحجاج ، ثم توسل بالحجاج ليوصله الى عبد الملك بن مروان ، فوجد عند خلفاء بني امية مــا يغنيه عن التذبذب بين الاحزاب .

ولكن النابغة الجعدي وعبيد الله بن قيس الرقيات لم يثبتا على الانتصار لحزب واحد واسماعيل بن يسار النسائي انقطع اولا الى ابن الزبير ثم تحول الى بني امية ولزم فيما بعد الوليد بن يزيد . وطريح بن عبيد الثقفي انقطع اولا الى الوليد بن يزيد وبالغ فى مدحه حتى قال له :

لو قلت للسيل دع طريقــك ... والموج عليـه كالهضب يعتلــج
لساخ وارتد . او لكان لــه ... فى سائر الارض عنـك منعرج

وقد عاش حتى ادرك عهد ابي جعفــر المنصور واراد التقرب منه فسأله ابو جعفر عن هذين البيتين فقال انه كان يرفع يديه الى الله تعالى عندما انشدهما موجها خطابه اليه ولكن ابا جعفر لم يقربه اليه . وكان من الطبيعي ان ينقطع اكثر الشعراء فى ذلك العصر الى بني امية طلبا لما عندهم من الجزاء ، فقد انقطع عبد الرحمن بن ارطاة الى الوليد بن عثمان بن عفان وانقطع نابغة بني شيبان الى عبد الملك بن مروان وهجا خصمه ابن الزبير وانقطع الاخطل ونصيب الى مدح بني امية حتى كان سليمان بن عبد الملك يفضله على الفرزدق ولزم الحكم بن عبدل الاسدي بشر بن مروان وكانت قلة من الشعراء تخلص للعلويين ومنهم السيد الحميري وقد غالى فى ذم السلف تعصبا لهم حتى تحرج الرواة من رواية شعره .

فاذا تركنا الشعر السياسي امكن ان ندرك مقدار مــا طرا على المجتمع العربي من التبدل الاجتماعي فى العصر الاموي فقد نشأت طبقة من ابناء الاعيان وخاصة فى مدن الحجاز ، توفرت لهم وسائل الحياة الناعمة ويسرت لهــم مكانتهم الاجتماعية الانقطاع عن العمل فانصرف الشعراء منهم الى وصف مغامراتهم اللاهية . وكان رائد هؤلاء عمر بن ابي ربيعة ومنهم ابن ابي عتيق وهو من سلالة ابي بكر الصديق والعرجي وهو من سلالة عثمان بن عفان، والاحوص وهو من سلالة عاصم بن ثابت بن الاقلح . فكانوا يتعرضون لزوجات الامراء والاعيان وبناتهم ويذكرونهن فى شعرهم واذاعوا ذلك الشعر عن طريق الغناء وما كان اكثر المغنين عند ذلك من رجال ونساء . ومما يلاحظ ان هؤلاء الشعراء كانوا من ابناء السراري لا من ابناء الحرائر من عقائــل الاسر العربية الخالصة ، فيمكن ان يقال انهم لم ينشأوا على ما اتجه اليه المجتمع الاسلامي الجديد من تحفظ نحو المراة على انه من الممكن كذلك ان يعزى انقطاع هؤلاء للشعر الغزلي الى اسباب سياسية فيحكى مثلا ان سليمان بـن

عبد الملك سأل ابن ابي ربيعة يوما عن سبب امتناعــــه عن مدحه فاجابه « انني لا امدح الرجال وانما امدح النساء » . فكان هؤلاء الشعراء ارادوا ان يقطعوا الذريعة الى مدح الخلفاء الامويين والدعاية لهم بشعرهم فانقطعوا الى شعرهم الغزلي . وتروى عن ابن ابي ربيعة اخبار تدل على انه كان يشنع احيانا على خلفاء بني امية .

غير انه الى جانب هؤلاء الشعراء ابناء الاعيان كان شعراء آخرون قد انقطعوا لشعر الغزل او صرفوا اليه كثيرا من اهتمامهم وتخلف لنا من ذلك تراث ضخم ينسب الى مجنون ليلى والى جميل بن معمر صاحب بثينة ومنه ما ورد في اقوال كثير ونصيب والصمة القشيري الذي قيل انه هاجر الى طبرستان حزنا على حرمانه من حبيبته وهو يصور حنينه الى معاهد حبه في عينيته المعروفة التي يقول فيها مخاطبا نفسه :

حننت الى ريا ونفسك باعدت ... مزارك من ريا وشعباكما معا
فما حسن ان تأتي الامر طائعا ... وتجزع ان داعي الصبابة اسمعا

وقد سما بعض هذا الشعر بالحب الى مرتبة فوق مرتبة الجسد وجعله أقرب الى روحانية المتصوفة مثل قول الشاعر:

واني لاستحييك حتى كانما ... علي بظهر الغيب منك رقيب

على اننا حين نستعرض شعر الغزل الاموي عامة سواء منه ما قاله ابناء الاعيان في مغامراتهم اللاهية او ما قاله سواهم نستطيع ان نلمح اثر الاسلام في تطهير ذلك الشعر والحيلولة بينه وبين الاسفاف ، وان كان بعض اهل ذلك العصر قد انكر بعضه .

ومما يقال في هذا المعنى ان يزيد بن معاوية غضب على الشاعر ابي دهبل حين قال في اخته عاتكة بنت معاوية ابياتا منها قوله :

وهي زهراء مثل لؤلؤة الغواص ... ميزت من لؤلؤ مكنون

غير ان اباه الحكيم لم يوافقه على غضبه ولم يجد في ذلك الشعر ما ينبغي لاحد ان يغضب منه وهناك ظاهرة اخرى جديدة ظهرت لاول مرة في الشعر العربي وهي اتجاه قلة من الشعراء الى الارتزاق بالهجاء لا بالمدح ، مثل ابن ميادة والحطيئة ، ويمكن تعليل هذا بان الظروف الجديدة ادت الى انفصال بعض طوائف المجتمع عنه وسببت قلة شعورهم بالولاء له . فابن ميادة مثلا كان ابن جارية بربرية او صقلبية وكان الحطيئة مطعونا في نسب .

وقد ظهر شعور الانفصال عن الحياة العربية في صورة اخرى وهي بدء الانتساب الى العجم والمفاخرة بذلك الانتساب . قال ابن ميادة في بعض شعره :

اليس غلام بين كسرى وظالم ... باكرم من نيطت عليه العمائم

وقال اسماعيل بن يسار ــ وهو مولى فارسي :

انما سمي الفوارس بالفرس ... مضاهاة رفعة الانساب
اتركي الفخر يا امام علينا ... واتركي الجور وانطقي بالصواب
واسالي ان جهلت عنا وعنكم ... كيف كنا في سالف الاحقاب
اذ نربي بناتنا وتدسون ... سفاها بناتكم في التراب

ومما يذكر هنا ان ابن يسار هذا سبق الى نوع جديد من الغزل المكشوف بابراز قصص دنيئة الى النساء . ومن امثلة ذلك قصيدته التي يصف فيها هجومه على بيت امرأة متزوجة وقضاء ليلة معها ويقول في آخرها :

حتى اذا الليل بدا ضوؤه ... وغابت الجوزاء والمرزم
خرجت والوطء خفي كما ... ينساب من مكمنه الارقم

فكان هذا الشعر من اشد ما قيل في هذا العصر جراة على المحارم . ومما يجب ان نذكره هنا ان الخمر لم ترد الا قليلا في شعر هذا العصر اذا استثنينا الاخطل وابا زبيد وعبد الرحمن بن ارطاة .

فالشعر العربي كما يبدو من هذا الاستعراض المجمل يبين ما طرا على المجتمع العربي من طوارىء احدثت ثلمة في وحدته الكاملة وادت الى شيء من الانفصام بين بعض الافراد ومجتمعهم . ولكنه مع ذلك يدل على انه بقي متصلا بالحياة الى حد بعيد متاثرا بها مؤثرا فيها محتفظا بالولاء له وان كان بعضه ولاء متكلفا متذبذبا . وقلما نجد في هذا العصر من الشعراء من تبدو على شعرهم دلائل الثورة او الحقد على المجتمع او الانعزال عنه والانطواء في انفسهم شعورا منهم بانهم غير شاعرين بالانتماء اليه .

ولا نملك الا ان نقول ان مكانة الشاعر في العصر الاموي قد هبطت هبوطا ملحوظا عن مكانته الاجتماعية في العصر الجاهلي ، فقد اصبح الكثير منهم تابعا مرتزقا من سادته لا صديقا مواليا لقومه .

العصر العباسي الاول

اما العصر العباسي الاول فقد شهد في الشعر تطورا ابعد بكثير مما شهده العصر الاموي ، وذلك لان المجتمع العربي شهد انقلابا من اشد الانقلابات التي تطرا على حياة الامم . فقد اصبح الموالي فيه قوة خطيرة الى حد انهم استطاعوا ان يقوضوا دولة بني امية ويقيموا بدلها دولة بني العباس وكان من المنتظر ان يتم الانصهار بينهم وبين العرب ويتكون من الجميع امة عربية واحدة اساسها مثل الاسلام في الحرية والمساواة ، ولكن ظروفا كثيرة لا محل لذكرها هنا حالت دون هذا الانصهار . فاستمرت العناصر المختلفة في الامة تعيش جنبا الى جنب وهي شاعرة بتميزها.

وكانت خيبة امل الموالي عقب انتصارهم واقامتهم للدولة العباسية سببا في شعورهم بالانفصال عن المجتمع الذي يعيشون فيه .

وكان لذلك الشعور اثر كبير في اتجاه الشعر نحاول ان نتبينه في انتاج ثلاثة من كبار شعراء هذا العصر وهم بشار بن برد وابو العتاهية وابو نواس ، وهم جميعا من الموالي .

كان بشار مولى اذ كان ابوه مولى احدى سيدات بني عقيل وكانت امه بغير شك غير عربية وكان ابوه عاملا فقيرا وهو قد ولد اعمى . وكل هذه عوامل تؤدي الى الانطواء

النفسي والشعور بالنقص وبالانعزال عن المجتمع . ولكن بشارا نشأ كما قال فى حجور ثمانين من شيوخ فصحاء بني عقيل فكانت لغته عربية فصيحة خالصة. ودرس العلم فى حلقات كبار العلماء والمفكرين ولكنه لم يستقر على مذهب غير الشك . وكان من الطبيعي ان يبدأ حياته الشعرية بالهجاء وصرح بان ذلك وسيلته الى شق طريقه فى مجتمع اجنبي عنه . واستمر فى حياته يضمر ثورة عنيفة على ذلك المجتمع فلما اعلن ابراهيم بن عبد الله بن حسن العلوي ثورته على ابي جعفر المنصور سارع بالانضمام اليه وبعث اليه بقصيدة يهاجم فيها ابا جعفر ويخاطبه قائلا:

ابا جعفر ما طول عيش بدائم   وما سالم عما قليل بسالم

غير ان هذه الثورة اخفقت وقبض على ابراهيم وقتل . فخشع بشار وبادر الى تغيير قصيدته وجعل مطلعها هجوما على ابي مسلم الخراساني الذي قضى عليه ابو جعفر فقال :

ابا مسلم ما طول عيش بدائم .

وفى هذه القصيدة ينطلق بشار مع ثورته مع ابراهيم العلوي فيقول متحمسا :

وخل الهويني للضعيف ولا تكن   نؤوما فان الحزم ليس بنائم
وما خير كف امسك الغل اختها   وما خير سيف لم يؤيد بقائم
وحارب اذا لم تعط الا ظلامة   شبا الحرب خير من قبول المظالم

الى اخر ما قال فيها ، وهي تظهر قوة شعوره الثائر على الدولة وعلى النظام القائم معها .

وظهرت ثورته فى نواح اخرى غير السياسة فقد سلك مسلك ابن ابي ربيعة فى الغزل وغلا فيه غلوا شديدا ، او هو سلك مسلك عبد الرحمن بن ارطاة وزاد فيه مغالاة الى درجة الافحاش . واتخذ لنفسه مجلسا سماه البردان وكان النساء يحضرن اليه . ولا شك فى ان اكثرهن كن من الجواري ، حتى لقد هال ذلك كثيرا من المتحفظين من رجال العلم والادب ، ولكنهم كانوا يخشون هجاءه المقذع فاستعانوا عليه بالخليفة المهدي الذي نهاه عن مسلكه . وكان مذهبه فى الحياة قائما على الشك ويبدو ذلك واضحا فى شعره فمن ذلك قوله :

طبعت على ما فى غير مخير   هواي ولو خيرت كنت المهذبا
اريد فلا اعطى واعطى ولم ارد   وقصر علمي ان انال المغيبا
فاصرف عن قصدي وعلمي مقصر   وامسي وما اعقبت الا التعجبا

وكان فى حياته الخاصة على ما يبدو لا يرعى حدا من حدود الاخلاق الاسلامية ومايدل على مذهبه الاباحي قوله:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته   وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

فهو يسخر من القضاء ويسخر من القيم الاجتماعية ويذكرنا بمن يزعمون أنهم يتبعون مذهب الوجودية .

وكان يصف عصره بانه دهر اللئام : ويظهر ضيقه به وتبرمه منه . وظهرت ثورته كذلك فى ثورته على العرب وعلى قيمهم ، كما تدل عليه اخباره وبعض اشعاره .

ولا شك ان هذا الروح الثائر الجريء هو الذي حرك عليه خصومه حتى اوقعوا به عند الخليفة المهدي الذي اخذه كما قيل بتهمة الزندقة وامر بقتله او باهدار دمه . وقيل ان الخليفة نفسه لم ينج من لسانه فنسب اليه شعر فيه تحريض شديد عليه وهو قوله :

بني امية هبوا طال نومكم .

كما نسب اليه شعر آخر فيه سب شنيع له وطعن مقذع عليه . فشعر بشار مثال على ما يكون عليه موضوع الشعر حين يحدث الانفصام بين الشاعر وبين المجتمع الذي يعيش فيه .

والشاعر الثاني هو ابو العتاهية . وهو مثل بشار من ابناء الموالي ، وقد نهل الفصاحة من مواليه فى بادية الكوفة . غير انه لم يكن فى مثل جراة بشار ، فلم يستطع ان يشق طريقه فى المجتمع بالهجاء ، بل اتجه الى أن يظهر التواضع حتى لقد قيل انه اشتغل بالحجامة اظهارا لتواضعه . وقد نهل من العلم قدرا ولكنه لم يتخذ لنفسه مذهبا اذ لم يجد من نفسه القدرة على الدفاع عن مذهب يعتقده . فاتجه الى شعر الزهد وجعله وسيلته للامتياز

وكان يتوخى السهولة فى ذلك الشعر ليكون اسير بين العامة . وما تزال بعض اشعاره تجري الى اليوم على الالسنة . وقليل من الناس من يعرف انها لابي العتاهية، مثل قوله :

ان الفراغ والشباب والجدة   مفسدة للمرء اي مفسدة

وقوله :

فى سبيل الله انفسنا   كلنا بالموت مرتهن
كل حي عند ميتته   حظه من ماله الكفن

وقوله :

وكانت فى حياتك لي عظات   وانت اليوم اوعظ منك حيا

ومن اقواله فى الهجاء :

وما تصنع بالسيف   اذا لم تك قتالا
فصغ ما كنت حليت   به سيفك خلخالا

ومنه فى الشكوى :

حتى اذا انقلب الزمان   علي حرت مع الزمان

وفى الغزل :

يا من راى قبلي قتيلا بكى   من شدة الوجد على القاتل .

ومنه فى التصوف والزهد :

فيا عجبا كيف يعصى الاله   ام كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية   تدل على انه واحد

ولكنه كان فى قرارة نفسه ثائرا على الحياة والمجتمع . قيل ان احد الناس سأله ماذا ينقش على خاتمه فاجابه : « اكتب لعنة الله على الناس » .

وقال :

برمت بالنـــاس واخلاقهـــم　　　فصرت استـــانس بالوحـدة
مـا اكثر النـاس لعمري ومـا　　　اقلهـم فى حـاصل العـدة

ومـــن قولـــه :

فتشت فى الدنيـا فليس بهـا　　　احـد اراه لآخر حـامد
حتـى كـان النـاس كلهـم　　　قـد افرغوا فى قـالب واحد

وقولـــه :

فاضرب بطرفـك حيث شئـت　　　فلـن ترى الا بخيـلا

وقولـــه :

يـا انتـن مـن حش　　　عـلى حـش اذا تـاها
ارى قومـا يتيهـون　　　حشوشـا رزقـوا جاهـا

والحش هو بيت الخلاء طبعا .

ومما يدل على ياسه من المجتمع :

ليس لمن ليست لـه خيلـة　　　موجـودة خيـر مـن الصبر
فاخط مـع الـدهر اذا ما خطـا　　　واجـر مـع الدهر كما يجري
مـن سابق الـدهر كبا كبوة　　　لـم يستقلهـا آخر الدهر .

ويبدو ان نظرته المتشائمة بالحياة وما فيها وقسوته فى الحكم على عصره هما السر فى انصرافه الى شعر الزهد . فهو من هذه الناحية منفصل عن مجتمعه ثائر عليـه وان كانت ثورته من نوع اخر غير ثورة معاصره بشار . فهـي ثورة حقد ولكنها مقرونة بالهروب .

والثالث من شعراء هذا العصر ابو نواس . وهو مولى كصاحبيه . وكان منذ طفولته وحيدا اذ خلفه ابوه طفلا . وكانت امه على ما قيل ترتزق من حياة غير شريفة صرفتها عن رعايته ، فوزع وقته منذ صغره بيـن التماس الرزق لنفسه وبين الاختلاف الى مجالس العلم والادب فى المسجد والجامع بالبصرة وهي من اكبر مراكز العلم والادب فـي عصره . وتقاذفت به ظروف حياته القاسية وهو وحيد من العائل والحامي والعاطف ، فطرحت به هذه الظروف الى الكوفة ، وكانت مركزا لحياة زاخرة مثـل البصرة ، وكان ما زال فى سن الشباب ، فالقى نفسه فى محيط مائج من دفعات الغرائز ومن تيارات الافكار المتضادة والعقائد الاجتماعية المتصارعة . وكان لا يستطيع بالطبع ان يجـد منفذا الى طبقة من الناس غير امثاله من الموالي الذيـن لا يجدون من تقاليد طبقتهم ما يحول بينهم وبين اقتحـام الحدود التي يتجنب اصحاب المروءة اقتحامها .

وقد نزح حينا الى البادية فعاش بين فصحاء بني اسد كما عاش بشار بين فصحاء بني عقيل وكما عاش ابـو العتاهية بين فصحاء بادية الكوفة ثم نزح الى بغداد فواجه الحياة المضطربة فيها كما يواجه الحيوان الصغير الوحيد مخاطر الغابة ، متحديا دائما متحفزا للدفاع عن وجوده فى كل لحظة ، ولم يجد لنفسه الطموح فرصة تحقق له مـا يرضي طموحه فامتلأت بالخيبة ، ولم يجد متنفسا لطموحه الا فى مجتمع صغير من امثاله ، رفهوا عن نفوسهم التـي امتلأت بشعور الخيبة بالتماس النسيان الذي تبعثه الخمر او فى الاثارة التي تبعثها نشوتها فيهم فكانت ثورتهم على مقدسات المجتمع تشعرهم بشيء من رضى التشفي .

وانطلق فى حياته هذه ثائرا حانقا على كل ما يتصل بالمجتمع من دين وعرف ، بل لقد شملت ثورته كل ما خاب فى تحقيقه من الاطمئنان الى الحب او الى العدل . وتمثلت ثورتـه فى اندفاع وحشي الى كل ما يحرمه المجتمع ، وفى سخرية لاذعة قاسية منه ومن قيمه ومثله ، فسخر من الحـب ومسخه مسخا يدل على عمق الهوة التي دفعه اليها ياسه مـن الحياة . وكان يباهي فى شعره بما يندفع اليـه مـن الجموح والقسوة ويجد فى هذه المباهاة ارتياحا كالحا يشبه ارتياح الشامت فى مصاب غيره . وهـو يقول فى تعبيره عن هذا الشعور عندما اوقع الاذى باحد اصحابه :

فنلت مـا ضـن بـه صاحبيا　　　والقلب منـي جـامع قـاس
لا خير فى اللـذات ما لم يكن　　　صاحبهـا منكشف الـراس .

ولست اريد ان اجادل فى قيمة شعره من ناحيته الفنية فهذا خارج عن حدود هذا الحديث الذي اتناول فيـه الموضوع فى الشعر ، غير انني اجد من الضروري ان اشير الى ظاهرة واحدة تميز اسلوبه فهو لا يكاد يبتكر معنـى وتكاد صوره تكون محصورة فى عدد قليل من المعاني يكررها ويلبسها اثوابا شتى .

فهو مثلا يكثر من تشبيه الخمر بالنار او النور ويكثر من تشبيه الحب بالجوهر من لؤلؤ ودر وغيرها . ومثل امثلة هذا اقواله الآتية :

فالخمر ياقوتة والطاس لؤلـؤة
كان صغرى وكبرى من فواقعهـا　　　حصباء در عـلى ارض من الذهب
فاذا عـلاها المـاء البسهـا　　　حببا كمثـل جلاجـل الحجـل
ثـم شجـت فـادارت　　　فوقهـا طوقـا فـدارا
كاقتـران الـدر بالنـد　　　ر صغـارا وكبـارا
شجت فعالت فوقهـا حببـا　　　متراصفـا كتراصـف النظم
ثـم شجـت فـادارت　　　فوقهـا مثـل العيـون
حدقـا ترنو الينـا　　　لـم تحجـر بجفـون
ذهبـا يثمـر درا　　　كـل ابـان وحيـن
اذا شجها الساقي بمـاء رايتها　　　مكللة الاعـلى بطـوق جمـان
حتى اذا مزجت بالمـاء واختلطت　　　حاك المزاج لها من لؤلؤ فلكـا
اذا ما علاهـا المـاء خلت حبابها　　　تفاريـق در فى جوانبهـا شتى
فاذا المـاء شجهـا خلت فيها　　　لؤلؤ فـوق لؤلؤ مسلوكـا .

وامثال هذه كثيرة تكاد لا تخلو منها قطعة من خمرياته .

ومن استعارته النار او النور لوصف الخمر قوله :

كان شعاع الشمس يلقاك دونها　　　ترى نهـا الى الشرف الاعلى شعاعا مطنبا
تلتهـب الكـف من تلهبهـا　　　وتحسر العيـن ان تقصاهـا
كـان نـارا بهـا محرشـة　　　نهابهـا تـارة وتغشاهـا
فلو مزجت بهـا نـورا لمازجها　　　حتـى تولـد انوار واضـواء

وهو يصف الخمر بالقدم ، ويكرر هذا المعنى كذلـك تكرارا لا ينبغي ان اطيل بعد هذا فى ايراد الامثلة عليـه .

ومن هذا يظهر ان صوره لم تكن اصيلة ولا غزيرة النبع فالصفة الاصيلة فى ابي نواس هي انه كان ثائرا على مجتمعه

وكانت ثورته عليه تتمثل فى تحدي مقدساته ومثله ونظمه.
وكان احيانا يجهر بما يدل صراحة على الثورة المنطوية فى اعماقه فمن ذلك قوله :

سابغي الغنى اما نديم خليفة ... يقوم سواء او مخيف سبيل
بكل فتى لا يستطار جنانه ... اذا نوه الزحفان باسم قتيل
ليخمس مال الله من كل فاجر ... وذي بطنة للطيبات اكول
الم تر ان المال عون على التقى ... وليس جواد معدم كبخيل

من هذا الاستعراض الموضوع الشعري فى العصور الثلاثة التي مر بها يمكن ان اقول انه انتقل من تعبير صادق يميزه الولاء للمجتمع فى العصر الجاهلي الى تعبير مختلف الوجهة فى العصر الاموي وانتهى فى العصر العباسي الاول الى تعبير فردي تميزه الثورة على المجتمع . ومن الممكن ان نميز بين طرفي هذا التطور فى موضوع الشعر العربي بما يميز به علماء النفس بين الظواهر النفسية للافراد اذ يصفون بعضهم بالانطلاق ويصفون بعضا اخر بالانطواء . فالشاعر الجاهلي كان منطلقا يعيش فى المجتمع ومعه وينظر الى شخصه من خلال نظرته الى الحياة ويعبر عن انفعاله بما حوله تعبيرا يسوده الولاء لمجتمعه سواء كان راضيا عنه او ساخطا عليه على حين كان الشاعر في العصر العباسي الاول اقرب ما يكون الى وصف الانطواء ، اذ كان ينظر الى الحياه من خلال شخصه فلا ينفعل الا طوعا لمشاعره الخاصة واتجاهاته النفسية التي يميزها الانفصام عن المجتمع . فهو لا يضمر للمجتمع ولاء بل يضمر له الحقد والثورة والسخرية المرة القاسية .

النتيجة

فلانتقل بعد هذا الى عرض نتيجتين لهما علاقة وثيقة بثقافتنا العربية فى عصرنا الحاضر .

النتيجة الاولى هي ان تراثنا الثقافي يشتمل فيما يشتمل على هذا الانتاج الادبي الذي انحدر الينا من عصر بعد عصر ، متزايدا على مر الزمن حتى صار اليوم خزانا ضخما تجمعت فيه روافد شتى الالوان والانواع مما بعثت به العصور المتعاقبة التي مرت بها الامة العربية فى ادوار حياتها الماضية منها عصر الجاهلية الذي ساده الانسجام بين الفرد ومجتمعه ومنها العصر الاسلامي الاموي الذي بدات عوامل الحياة الجديدة تطرا عليه واهمها بدء امتزاج العرب بغيرهم من الشعوب ، ثم العصر العباسي الاول الذي اجتمعت فيه اخلاط شتى من شعوب لم يتح لها بعد ان تنصهر فى امة واحدة جديدة متجانسة ، ثم اخذت هذه العناصر المختلفة تنصهر معا على توالي القرون وواجهت معا احداثا عنيفة ومغامرات قاسية ، خرجت منها امة عربية حديثة صارت تزداد انصهارا وامتزاجا على مر عدة مئات من السنين حتى انتهت الى هذا العصر الحاضر وقد تم انصهارها معا او كاد ، واصبحت امة عربية موحدة الوعي والشعور موحدة المثل العليا والقيم الى حد كبير .

فاذا اردنا ان نعرض تراثنا الادبي على ناشئة هذه الامة الجديدة كان جديرا بنا ان نذكر انه تراث مختلف الانماط منبعث من شتى الانفعالات فى العصور المتوالية وان حياتنا الحاضرة لا يلائمها الا ان يكون ادبها متميزا بالولاء الكامل للمجتمع فالتراث الادبي فى مجموعه وان كان جديرا بأن يتوفر عليه الدارسون المتخصصون ، فان الثقافة العامة للاجيال الناشئة تتطلب اشد التحري فى اختيار ما يعرض منه على الناشئة مما يلائم حياتهم الاجتماعية الحاضرة والمنشودة فى نهضتنا الحديثة .

وقد ادركت اجيال سابقة من الامة العربية ضرورة التحري فى اختيارها لما يعرض على طلاب الثقافة من ناشئتها ، فعمد كبار ادبائها الى اعداد المختارات الملائمة التي تعزز المثل العليا والقيم التي ينبغي للناشئة ان يتعلقوا بها ومن هذه المختارات حماسة ابي تمام وحماسة البحتري وغيرهما .

فمن الواجب ان يهتم المشرفون على تثقيف الاجيال الناشئة فى وقتنا هذا باعداد المختارات الادبية الجامعة لروائع الشعر العربي بخاصة وان يهتموا بنشر روائع الادب العربي والاجنبي بصفة عامة مع التحري ان يكون هذا كله مما يلائم روح هذا العصر الذي عادت فيه الوحدة الى الامة العربية بعد انصهار عناصرها معا وصار من الطبيعي ان يكون التضامن او التجاوب كاملا بين الفرد والمجتمع .

والنتيجة الثانية التي اود ان اعرضها تتصل بنقد الادب ونقاده وهذا ما سقت هذا الحديث من اجله قصدا . فنحن اليوم كما قدمت امة عربية حديثة موحدة الوعي والمشاعر ومن الطبيعي ان يشعر الفرد منا اليوم بالولاء الكامل لمجتمعه سواء فى حال رضاه عنه او سخطه عن بعض ما فيه . غير انا فى الوقت عينه نعيش وسط عالم انساني اصبح قريبا منا سهل الاتصال بنا ولا نستطيع ان نباعد بيننا وبينه سواء اردنا ذلك او لم نرده . وامم العالم تتفاوت فى ظروفها وقد يكون منها امم استقرت فيها الحياة على الولاء الكامل بين الفرد ومجتمعه ومنها امم اخرى قد تكون فى مرحلة زعزعة وبلبلة فهي تتعرض لظاهرة الانفصام بين الافراد ومجتمعهم . وهناك ما يدل دلالة واضحة على ان بعض اتجاهات الادب فى بعض الامم تشبه اتجاه الادب فى العصر العباسي الاول من ناحية ثورته وخروجه على مثل المجتمع وقيمه ومن حيث احتقار ادبائها لتلك المثل والقيم

والاسباب التي تجعلنا نتطلب التحري فى اختيار ما يناسب حياتنا الحاضرة من تراثنا الادبي تجعلنا نتطلب من النقد والنقاد ان يتحروا كذلك فى اختيار مذاهبهم النقدية فلا يقبلون مذاهب النقد الادبي التي ترد الينا من الامم التي اصاب الانفصام مجتمعها ، فان تلك المذاهب تتعارض ومرحلة الحياة التي نحياها فى هذا العصر .

وقد بينا فى اول هذا الحديث ان مذهب النقد القائم على شعار « الفن للفن » ليس له معنى فى الحقيقة الا ان يتحلل الاديب من كل اعتبار اجتماعي ، فلا يلتزم بأن يكون الانتاج متصفا بالولاء للمجتمع سواء كان راضيا عنه او متعرضا لنقده ، ولا يلتزم بان يكون الانتاج مغايرا للمثل العليا التي يؤمن المجتمع بها او كافرا بها ولا يهمه فى شيء ان يكون الانتاج حاقدا على المجتمع هادما له او داعرا ماجنا يسخر من مقدساته وينتهك حرماته ما دام يحقق غاية واحدة وهي خضوعه لشعار « الفن للفن » .

ان الاسلوب الفني مفترض فى كل انتاج ادبي ، فاهم ما ينبغي ان ينظر اليه فى النقد بعد تحقق الاسلوب الفني هو « الموضوع » ومقدار ما ينطوي عليه من ولاء للمجتمع واتصال نفسي عاطف به . وليس معنى ذلك ان يكون الانتاج راضيا عن كل ما فى المجتمع بل قد يكون متصفا بالولاء الكامل له مع نقده وابداء السخط على بعض مظاهره ، ففي هذه الحالة يكون نقد الاديب لمجتمعه نابعا من رغبته فى تسديده وتوجيهه الى وجهة افضل ، فيكون سخطه سخط الولي العاطف المتضامن لا سخرية الثائر المنعزل الكاره المتحدي .

اما الاديب الذي لا يأبه الى خير مجتمعه ولا يعتد بقيمه ولا بمثله العليا ويزعم انه يعيش لنفسه وانه ينصرف الى فنه من اجل الفن وحده ولا يعنيه ما يؤول اليه امر المجتمع فلا يهمه ان يبقى متماسكا ويزيد صلاحا او ان يضطرب امره ويضمحل شأنه ، فان المعنى الحقيقي لموقفه من مجتمعه فهو انه ثائر عليه ويقصد الى هدمه وهذا ما اقصده حين اقول ان مثل هذا الاديب ينطبق عليه وصف الانطوائي الساخر الحانق الذي لا ينطوي على ولاء لمجتمعه .

وهناك امثلة لهذا الصنف من الادباء فى امم العالم الاخرى ممن يدابون على اثارة الغرائز الهوجاء البدائية التي لاتلائم المجتمعات فى وقت نهضتها بل تنطلق فيها حين تدركها الشيخوخة الحضارية وتقترب بها الى الفناء ، وهناك من هذا الصنف من الادباء من يدعون الى التحلل من الحدود والقيود التي تعارف عليها المجتمع صيانة لكيانه من الانهيار فيزيفون لانفسهم بعض المذاهب الفلسفية كالوجودية وهم لا يدرون ما هو ذلك المذهب الذي يزيفونه لانفسهم كما فعل غيرهم من قبل حين زيفوا مذهب ابيقور الفلسفي وحرفوا معناه الى التماس اللذات الجسدية وجعلوا ذلك غاية الحياة التي يحيونها . وما احرانا ان ننفض ايدينا من ادب هؤلاء ومن يريدون من نقادنا ان يحولوا اليه مذهبهم فى النقد. نصيحة الفن للفن تبعد بالنقد عن ميدانه الصحيح وهو نقد الموضوع الذي يختاره الاديب ليبرزه باسلوبه الفني ، فان قيمة الانتاج الادبي لا تعرف الا بمقياس مزدوج على الاقل . فجانب من هذه القيمة يرجع الى توافر العناصر الفنية فى اسلوبه وهذا شرط اولي لا يمكن ان يسمى الانتاج ادبيا الا حين يتوافر له ، والجانب الاخر الذي هو الفيصل فى المفاضلة بين انتاج ادبي واخر هو « الموضوع » الذي لا بد للنقد ان يتحرى الدقة فى الكشف عن حقيقته وهل هو موضوع وبيل ينفث السم فى المجتمع او هو مما يبعث الحياة ويطهرها ويسمو بها الى مراتب اعلى ويدفع بها الى مستوى حضاري اجدر بالبقاء .

هذا ما اردت ان اعرضه واعتذر من الاطالة راجيا من زملائي اعضاء المجمع الموقرين ان يكرموني بالتسديد والتسامح الذي هم اهله . وفقنا الله جميعا الى خدمة لغتنا الشريفة ومجتمعنا الناهض المجاهد .

القاهرة

محمد فريد ابو حديد

الفستان الاحمر

فستانها الاحمر ما ابدعك — روحي مع الخيط وقلبي معك
ايا ملاكا مر في ضيعتي — فقنت الاطيار ما اروعك
يا ناشر الطيب بوادي الهوى — قف لحظات لي ما اسرعك
ففي دمائي انت الغنية — ساحرة تسال من اطلعك
الشفق الغارب اغضبته — والافق من الوانه ارضعك
مررت فالاثواب في خجلة — والزهر باح العطر من ضوعك
واعين العشاق ذابت جوى — تهمس فى الافاق كي ترجعك
من خاط هذا الثوب من خاطه — من اي ريش طرزوا الدرعك
ان داعبتك الريح يا قاتلي — تمنت الانفاس ان تمنعك
فستانها الاحمر ما ابدعك — روحي مع الخيط وقلبي معك !

بغداد

مزيد الظاهر

الى اللقاء يا جولي

بقلم عدنان الداعوق

قصة

لم تكن زيارتي الاخيرة للقاهرة هي المرة الاولى التي اعجب فيها بجمال المدينة الكبيرة ولا بعظمتها .. انما كانت المرة السادسة او السابعة لا ادري بالتحديد .. الا انني آمنت منذ المرة الاولى بالمأثورة القائلة : «من يشرب من ماء النيل مرة ، لا بد ان يعود لارض النيل مرة اخرى ..»

وقد اضفت بيني وبين نفسي عبارة جديدة على المأثورة فقلت : «لا بد ان يعود مرات عديدة ..»

وعلى هذا الاساس فقد وضعت نظاما خاصا لذي منذ فترة غير قصيرة بان ازور ارض النيل واقيم بالقاهرة مرتاحا سعيدا كلما سنحت لي الفرصة او وجدت فى ايامي متسعا اروح فيه عن نفسي ، ورتابة ايامي .

غير انني جزمت فى هذه المرة الاخيرة وأنا بالقاهرة انني لم ار جمال المدينة الرائعة فى كل زياراتي الماضية كما لم اشاهد او اعجب بما اعجبت من قبل . ولا ادري بالضبط كيف يقيس الانسان مدى اعجابه بشيء ما ، فقد تتكرر الصورة الجميلة امامه عدة مرات .. ولكنه مع ذلك لا يهز مشاعره الجمال فى هذه الصورة خلال هذه المرات .. وقديفطن لهذا الجمال فى آخر مرة فيقف تجاه الامر معجبا ومتعجبا فكيف لم يفطن الا اليوم بهذا الثراء الجميل فى تلك الصورة المتكررة .

وقد احسست بهذا الشيء تماما فى زيارتي هذه فقد استطيع ان اقول بمنتهى الصدق انني لم ار القاهرة قبل اليوم بهذه الروعة ولا هذا الجمال .

وقد تكون السعادة النفسية ، والجمال الداخلي المدفون ، من العوامل الجدية فى توضيح صورة الجمال المتكررة ، احيانا .

ومضت ايام زيارتي سريعة لاهثة : وهكذا دوما ازمنة السعادة ، فهي تنقضي بسرعة مذهلة مخلفة وراءها حسرة جميلة هي انقضائها كلمح البرق ..

وودعت صحبي واصدقائي واشبعت بصري من جمال النيل وهو يروي كل شبر ، وكل قلب كذلك ، بالعذوبة والرقة والسعادة .

ومضيت الى المطار لاستقبل رحلتي الاخرى ، عودتي الى مدينتي الحلوة دمشق .

وعند مكتب الجوازات لمحتها اول مرة .. كخطف النور فى الليل المظلم .

وقفت امتع نظري بها ، وبشلال النور المذهب الذي يتهدل بعبقرية ازلية على كتفيها .

واقتربت .. فقد جذبني النور كما يجذب الفجر طلائع النهار الجديد فسمعتها تتكلم بالانكليزية ، وبصوت رقيق كهمسة حلوة ربيعية العبير .

ووجدت اكثر من موظف يتبرع فى خدمتها ومساعدتها .. كان بيدها جواز سفر لمحت اليه ـ وقد صرت بجانبها ـ عبارة « ديبلوماسي » .. فايقنت انها ـ لاول وهلة ـ امريكية ، وانها ابنة سفير او قنصل او احد الرجال الدبلوماسيين قادمة من امريكا فى زيارة خاطفة للقاهرة .

تناولت الاستمارة من اكثر من يد واحدة لتملىء فيها بعض المعلومات الخاصة .. ولم يفطن احد من جميع المعجبين بها ان يقدم لها قلما ، فابتسمت اكثر من ابتسامة دون أن تشير الى ما تحتاج للكتابة ، فاخرجت لها من جيبي قلمي وقدمته لها .. وفى ذات اللحظة امتدت الايدي تحمل اليها الاقلام والابتسامات والرجاء .

وبابتسامة اخرى اعتذرت للجميع ، وتناولت مني القلم وراحت تكتب وتملىء الاستمارة ، والتفتت الي بعد لحظة وسألتني بانكليزية ساحرة :

ـ هل علي ان اشير الى زيارتي لبيروت ..؟

واجبت وانا لااصدق انها تكلمني .. وحسبت اول الامر انها تحدثني معبرة عن شكرها لتسليفها القلم الذي احتاجت للكتابة :

ـ كلا ، لا لزوم للاشارة الان .. ففي دمشق تحتاجين الى ذلك .

فعادت والتفتت ، ووقعت الاستمارة وناولتني القلم وانضمت هناك فى الصالون الكبير الى جموع المنتظرين .

وشعرت انها خلفت بذهابها اكثر من فراغ .. فتقدمت حيث كانت واقفة ، وانهيت اوراقي باسراع ملحوظ ، وانضممت الى المنتظرين واخذت مقعدا قريبا منها .

ورايت بعض موظفي المطار يهرعون اليها ويسألونها اية خدمة .. وكانت تجيب بنفس الابتسامة المشرقة ، حتى شعرت انها تضايقت من هذا التهافت المغرق ..

ولم ادر كيف التفتت نحوي ، وقد كانت قاصدة ان تنظر الي .. وترجمت نظرتها بسرعة ، انها متضايقة . وقامت حيث كانت تجلس ، وانطلقت تبحث عن شيء .. ولم تلبث ان عادت .. ولكنها اختارت هذه المرة المقعد الخالي الذي بجانبي ، وجلست .. وسمعتها تتنفس الصعداء مرتاحة انها وجدت المكان المفضل والمختار .

وكنت اقرا فى جريدة «الاخبار» عن آخر تطورات الازمة التي سببتها امريكا للباخرة «كليوبترا» وراحت تسرق النظر الى الصحيفة ، وقالت لي بعدما لمحت صورة الباخرة فى وسط الصفحة :

ـ اظنها الباخرة كليوباترا ؟..

اجبتها دون ان اتطلع اليها .. وتصنعت الاغراق فى القراءة وقلت هي نفسها ..

قالت وقد قربت وجهها مني ..

وعند ذاك تطلعت فرأيت صفحة القمر تنبسط في يسر وتبتسم للرمال الملتهبة العطشى :

ــ آسفة ..

اثارت انتباهي هذه الكلمة العجلى، وتطلعت اليها حتى استطعت في لحظة واحدة ان استوعب جميع تقاطيع وجهها المتبسم المتمنم ، وقلت :

ــ ولماذا تأسفين ..؟

وكأنما كانت تتوقع مني هذا الجواب فقالت :

ــ لانني امريكية .. واعتقد ان العمل الذي قامت به الموانيء الامريكية في منتهى الوحشية والقسوة .. وهممت بان ارد عليها ، ولكنها كانت اسرع مني حين اردفت :

ــ قلت لك انني امريكية ، واعرف الامريكيين اكثر منكم ، فمن المؤسف حقا ان تلاقي باخرة عربية مثلما لاقت كليوبترا .. لا سيما وانا اعتقد ان بين الجمهورية العربية المتحدة وبين امريكا من صداقة يحرص عليها الطرفان .. ام ماذا تقول :

قلت وقد شعرت بارتياح داخلي راودني وانا اسمع حديث هذه الامريكية الشابة :

ــ قد تعرفين كذلك اشياء اكثر .. ولكنني استطيع ان اقول لو كانت هنالك فعلا نوايا صادقة من جهة امريكا نحو الجمهورية العربية المتحدة لما لجأت امريكا الى هذه التصرفات الحمقاء تجاه باخرة شحن .. ولكن بنظري الموضوع اعمق من ذلك بكثير .

كانت تتطلع الي باعجاب وقد اخذني الانفعال ، وتراقب الانطباع الذي تركه حديثي على وجهي من شدة تمثلت بتصلب تقاطيع وجهي ويدي ، وطويت الصحيفة ورحت اكمل لها :

ــ قلت انك تعرفين الكثير عن نوايا امريكا ..

اجابتني في جد وحرص :

ــ ارجوك دعنا من المسائل السياسية .. ولنتحدث في المواضيع العامة .. انني مثلا في امريكا اخاف ان امشي ليلا بعد الساعة الحادية عشرة حتى في اكبر شوارع «بوسطن» وذلك بعد عدة حوادث خطف جرت هناك .

ابتسمت ضاحكا وانا اقول :

ــ ربما لانك متشبعة تماما بروح الافلام الامريكية المغامرة تحسبين هذا .

قالت : بل بالعكس ، انتم تظنون هذا ، ولكن الحقيقة التي لا تعرفون عنها شيئا ان هناك في امريكا .. في البلاد التي تبدو متمدنة امام العالم تحدث اشياء لا يتصور الانسان حدوثها في اوحش منطقة !

ولم ادر ساعتها اكانت تتكلم بلسان الانسانة العادية جدا التي تقول ما



عدنان الداعوق

•

ترى .. ام انها كانت تتحدث بلسان الدبلوماسية السياسية المحنكة التي تحاول ان تستجلبني لحديث تستشف من ورائه نواياي الوطنية المخبأة ..!

وسمعنا صوت المذيع يعلن بصوت متوتر :

ــ على ركاب الطائرة المصرية المسافرة الى دمشق الاستعداد واستلام جوازاتهم وهوياتهم ..

وقبل ان يعيد المذيع عبارته نفسها باللغات الاجنبية ، كنت اترجم لها ما يقول ..

وسمعتها فجأة تسألني : امسافر انت الى دمشق ..؟

قلت في شبه استخفاف :

ــ هو خط واحد يسير من القاهرة الى دمشق .. وما دمنا مسافرين عليه .. فحتما سنصل الى دمشق .

ابتسمت باشراق وقالت :

ــ وهل تعتقد انها رحلة طويلة ..؟

لم اجبها بغير بسمة ضئيلة ، ولكنني أجبت نفسي قائلا :

ــ آمل ان تطول ..!

كانت نظرات بعض الشبان من المسافرين معنا ترمقني بشدة وحسد ظاهرين ..

وكان من حقهم فعلا ان يحسدوني على هذه الرفيقة التي باتت تلتصق بي ولا تستطيع الفكاك عني .. ورحنا نتحدث معا بشتى المواضيع ومختلف الاحاديث .

وقبل ان نتعمق في احاديثنا قالت لي ببساطة واضحة :

ــ اسمي .. جولي .. جولي براين ، امريكية طبعا ، والحقتها بضحكة حلوة ، ثم تابعت ، اعمل في السلك الخارجي

سألتها ، ونحن نصعد سلم الطائرة وقد حملت عني حقيبة صغيرة ورزمة كتب ، حيث لم يكن لديها سوى حقيبة يد صغيرة واخرى للاعمال :

ــ وهل هذه اول مرة تسافرين فيها لدمشق او بيروت ..؟

قالت : لم اعرف الشرق قبل زيارتي القاهرة وسامكث ببيروت شهرا قبل ان اعود ..

قلت لها وقد اخترت مقعدين في الصفوف الخلفية من الطائرة :

ــ على كل حال .. هي فترة استطلاع ومعرفة ، فليس اسعد على الانسان من الترحال .

واطبقت علينا لحظة الصمت القوية قبل اقلاع الطائرة .. انتبهت الى الحزام المرخي على جانبي المقعد ، فقلت لها ، وقد شرعت بربط حزامي :

ــ الافضل ان نظل معا .. فلا يسقط احدنا دون الاخر ..!

فضحكت بصوت مسموع ، تغلب على ازيز المحركات ، فدارت رؤوس

بعض الشباب نحونا تنظر الينا في حسرة ، واعقبتها اكثر من آه ندت من الصدور ، ولكن هذه الآهات كلها ضاعت ولم نسمع لها صوت المحركات

تناولت من محفظتها مجلة الـ «تايم» وراحت تقرا فيها بحثا ، واعتذرت مني قائلة :

ــ عفوا .. لم يبق لي من مقال كنت اقراه سوى بضع سطور ، وبعدها اريدك ان تحدثني عن دمشق وبيروت

وتشاغلت أنا الاخر ــ رغما عني ــ بمقال في جريدتي ، ولم استطع الا بين اللحظة والاخرى ان انظر اليها موهما اياها انني انظر نحو النافذة على يسارها .. واتطلع اليها ، واطيل التطلع .

كانت «جولي براين» في السادسة والعشرين من عمرها .. شقراء ، نحاسية البشرة .. عيناها الخضراوان بقعة من الفردوس المفقود الذي يبحث عند الانسان الاسطوري منذ بدء الخليقة

قامتها المشوقة ذكرتني بقوام فاتنة السينما .. «آفا جاردنر» في صوتها نبرة حالمة ، وفي عباراتها حلاوة وطراوة .. وفي نظرتها عمق اخضر يتطلع باصرار الفنان الى مجاهل الواقع ومسارب الخيال في آن واحد .

وفي الاجمال كانت فتاة رائعة ..

عجبت كثيرا كيف استطاعت فتاة لها جمالها وروعتها ان تغترب عن اهلها وتترك بلادها وحيدة لا رقيب معها وتاتي الى الشرق

وجاءني صوتها وانا مستغرق في افكاري :

ــ انني جائعة ..!

نظرت اليها .. كانت تتطلع في وجهي باصرار وتاكيد ، وكانما تريد ان تتأكد مني تماما .. او كانها كانت تبحث ــ هي الاخرى ــ في مجهولها عن هذا الشرقي الذي حتم عليها ان تطير واياه من القاهرة الى دمشق .. وربما كانت تسترجع في خيالها البعيد صورا زاهية من الشرق العظيم بكل روعته وبهائه وبكل سحره وخياله .. صورا من الف ليلة وليلة ، والحصان الطائر ، والبساط السحري ، والفانوس الذي يقبع في اعماقه العملاق الجاني يجيرونه

ثم ابتسمت بعد الاصرار ، وقالت :

ــ ما لك تنظر الي هكذا ..!؟

فانتبهت الى قولها وقلت :

ــ عفوك ، فقد كنت اسبح في خيالاتي البعيدة وانت الى جانبي ..

قالت ، وقد وضعت كلتا يديها على صدرها ، كطفلة صغيرة بريئة :

ــ والى اين وصلت بافكارك ايها الشرقي ..؟

قلت : الى حيث جاء الحصان الطائر بفارسه المقدام وحط عند حبيبته الساحرة وانتشلها ووضعها الى جانبه فوق السرج المذهب ، وطار معها الى حيث بلاد الجن .. والبساتين الساحرة

ــ ما اجمل شرقكم .. لكم تمنيت ، عندما كنت صغيرة ، ان آتي الى هذا الشرق لالمس بنفسي جلال الجمال وبهاء الحياة ، وصفاء الفكر ونقاء الريرة .. وكانما استجابت الاقدار لدعاءاتي الصغيرة الساذجة ..

فها انا اليوم اتنسم عبير الشرق العظيم .

وقبل ان اتابع حديثها ، فطنت الى ما سالت عنه منذ لحظة فاعدت عليها قولي سائلا :

ــ انت جائعة فعلا ..؟

قالت بابتسام : جدا ، ويخيل الي انني لم آكل منذ ايام بعيدة .

وهممت بان اتحرك من مقعدي واذهب الى المضيفة لارجوها باحضار اي شيء من طعام لجولي .. وقمت فعلا من مقعدي فرايت المضيفة وقد ظهرت تحمل صينية عليها بعض الاطباق من طعام الغداء .

فعدت الى « جولي » ضاحكا

ــ يبدو ان جميع امانيك ستتحقق منذ الان ، وبسرعة مذهلة .

فقالت : الطعام هذه المرة .!؟

اومات لها براسي ، دون ان اتكلم ، وعيناي تبحثان عن درة ثمينة ضاعت وسط الصحراء وفي مجاهل الرمال.

ومضى الوقت سريعا بهذه الرحلة السعيدة ، حتى خيل الي ان الطيار قد سلك في رحلته هذه طريقا جديدة هي اقرب ما تكون بين القاهرة ودمشق .. او كانما قد عرف ان بين ركابه من يستطيل الوقت ويستبطيء الزمن ، فاراد ان يبرهن له على عبقريته وفطنته

وجاءني الصوت من المذياع وكانه ينبهني من الضياع المطلق الجميل الذي كنت أعيش فيه :

ــ يرجى من الركاب احكام الاحزمة .. فسوف نهبط .. دمشق على بعد قريب منا .

وانتظرت المذيع ــ هذه المرة ــ يترجم لجولي اننا اصبحنا فوق دمشق.

وما كانت تسمع ذلك ، حتى نظرت نحوي ، ولمحت في اعماق نظرتها شيئا اكثر من الاسف والتحسر ، ولم تملك نفسها من القول :

ــ عجيب امر هذه الرحلة .. كم كانت قصيرة سريعة ..؟

اجبتها بما يشبه الصمت :

ــ تلك هي دوما عظات السعادة .!

كان على « جولي » ان تذهب حال وصولها لدمشق الى السفارة الامريكية قبل ان تستانف سفرها بالسيارة الى بيروت . كانت لا تعرف شيئا عن دمشق .. ولا تعرف ايضا اي شيء عن الطريق بين دمشق وبيروت .

في المطار كانت الى جانبي تحمل عني بعض امتعتي الصغيرة وكانها قريبة لي .

وحسب بعض من شاهدها معي ، انها زوجتي .. فقد كانت الى جانب جمالها البديع رصينة هادئة من غير طيش او ميوعة .

وانتهينا بسرعة من المطار .. وخرجنا ، ولم ننتظر بقية المسافرين لنستقل جميعا سيارة الشركة الكبيرة لتقلنا الى المدينة ، بل حملنا امتعتنا واستاجرنا سيارة صغيرة نزلنا بها الى دمشق .

سالتني ونحن بجانب بعض في المقعد الخلفي :

ــ هل استطيع ان استدل على مركز السفارة ..؟

ــ باستطاعتي ان ادلك .. فسوف

اذهب معك الى هناك وان كنت ستنتهين من عملك بسرعة ، فسوف انتظرك لاعود بك الى المدينة حيث ادلك كذلك على المكان الذي تستقلين منه سيارة الى بيروت .

ـ اشكرك .. سوف لن اتاخر اكثر من بضع دقائق في السفارة .. وبعدها انزل معك ..

واشرت الى السائق ان يذهب بنا للسفارة الامريكية ، وبقيت في السيارة انتظرها حين دخلت السفارة .

وعادت الي بلمح البرق .. ولمحت على وجهها وهي تنزل الي مهرولة .. ابتسامة النصر وابتسامة الفوز بشيء عزيز كانت تتمناه منذ وقت بعيد ..

قلت لها وقبل ان تنطلق السيارة بنا:

ـ ايزعجك ، وقد اقتربت من منزلي ، أن ننزل فنرتاح فيه قليلا قبل ان ننزل للبلد .

قالت بلا مبالاة :

ـ بل يسعدني ذلك جدا .

واسترحنا في منزلي الصغير بالمهاجرين قرابة الساعة .. كان منزلي اشبه بصومعة فنان او استديو رسام .. فاللوحات المتناثرة في كل الجدران .. والالوان المختلفة سواء من الستائر او قطع الاثاث كانت تؤلف بمجموعها امتدادا اخر من البساطة والجمال .

واخرجت « جولي » من حقيبتها الكبيرة ثوبا اخضر اللون .. بلون عينيها تماما ، ربيعي الاكمام ووضعت في اذنيها قرطا يشبه الطارة الفارغة في وسطه حجر اخضر اللون كذلك ..

وقالت لي منتشية :

ـ لا ادري لماذا انا سعيدة هكذا .. اصحبتك هي التي اسعدتني ، ام جو مدينتك الساحر ..؟

قلت لها بسعادة طاغية :

ـ بل وجودك انت اضاف على المدينة سحرا لم تعرفه من قبل .

فضحكت بصوت منغوم حلو وهي تقول :

ـ يا الهي ما اغباني .. حتى اسمك لم اسالك عنه ..!

قلت : بل بالعكس انا الغبي الذي شغلني جمالك من تذكر اسمي .. وتقديم نفسي لك .. تستطيعين ان تدعيني عاصم ..

فرددت بعدي بلهجة متكسرة :

ـ آصم .. آصم ..

وعادت الى انكليزيتها تقول :

ـ يا له من اسم جميل .. هل تستطيع ان تقول لي ما معنى اسمك ..

قلت لها غامزا :

ـ معنى اسمي : انك جميلة .. وحلوة ..

فضحكت « جولي » وتناولت يدي بيديها وقالت :

ـ هل يجوز لنا ان نمضي ما تبقى لنا من وقت في المنزل ام نستطيع ان نتفسح في المدينة قليلا ..!

ضممت يدها بين يدي بعطف بالغ وقلت : هيا ...

نزلنا من المنزل وطفنا قليلا بشارع « المهاجرين » وشاهدت « جولي » روعة جبل قاسيون وجمال المنظر الممتد الذي بدت فيه دمشق الفيحاء بغوطتها الخضراء وقد اصطبغت ببهاء الشمس الذهبية ..

ـ يالهذه المدينة الرائعة الساحرة ..

قلت لها ويدها في يدي والعواطف تتأجج في قلبي ـ وفي قلبها كذلك :

ـ هي مدينة رائعة على الذي يريد ان يراها كما هي ان يقيم فيها .

قالت : منذ لحظات قلت لي ونحن في الطائرة بان امالي كلها سوف تتحقق .. فهل هذا الرجاء ضمن آمالي ..؟

قلت : اذا كنت مخلصة ومؤمنة بذلك .. فجميع الامال سوف تتحقق وهذه اسطورة نحن نؤمن بها في الشرق

قالت جولي : ليتني استطيع ان اقول لك كل امالي دفعة واحدة .

امضيت مع «جولي» اسعد لحظات عمري الذي قضيته بدمشق .. وشهدت واياها جمال المدينة الفيحاء وهي تغوص بذوب الشمس وتختفي في الضوء البهيج، لتشتعل مرة اخرى من جديد بانوار الليل وضوء القمر والنجوم المرصعة التي تطل من فوق قمم قاسيون بخجل وحياء وخفر ...

واقسى لحظة كانت ساعة مضيت بجولي الى مربض السيارات المسافرة الى بيروت من ساحة « المرجة » وحجزت لها مقعدا ، واوصيت السائق ان يعتني بها ويوصلها الى فندق « الامباسادور » حيث اقترحت عليها ان تنزل فيه خلال اقامتها ببيروت .

وعندما كنت اودعها ، لمحت في اعماق عينيها عبارة شكر ، واسطورة حب عاش في حرمان مرير بعيدا في القارة الجديدة .. وظل يطوف ويطوف حتى ولد في الشرق المبدع فجاء اروع حبا في ابهج لحظات العمر.

وتودعنا على أن نلتقي قريبا في بيروت .. فقد تعللت لها بانني سوف اذهب لبيروت بعد ايام لانهاء بعض الاعمال الخاصة بي ، وهناك سنلتقي.

وسوف اقص عليها من جديد قصص الف ليلة وليلة ، واعيد عليها قصة الحصان الطائر بفارسه الملثم .. الآتي من اقاصي الدنيا لاخذ حبيبته العاشقة المنتظرة ..

وضمت يدها الى يدي بحب بالغ وقالت :

ـ هل تؤمن بالزمن ..

قلت في اصرار: ليس كايماني بالحب

فابتسمت .. وكانت هي الكلمة التي تنتظر ، وتركت لي يدها من نافذة السيارة لانحني عليها واطبع فوقها قبلة ناعمة .

ووجدتها تنطق باسمي بالعربية بنشوة عارمة :

ـ آصم .. آصم ..

ثم اردفت وقد اوشكت السيارة على الانطلاق بانكليزيتها الرقيقة قائلة:

ـ سوف لن انساك ابدا .. وسوف انتظرك في بيروت .

ونظرت الى عينيها ، فبدت نظرتها لامعة تبرق في صمت مشوب بالحزن .. ولكن ابتسامتها كانت تحمل التفاؤل باللقاء القريب في بيروت .

حمص — عدنان الداعوق

ليلة المخمل

ليلتنا ، كادت نجوم السما تفتح باب النرجس المخملي
هذي لنا ، يا شاغلي وحدنا في غفلة الشاجي ونوم الخلي
ليلتنا ، يا من تعبدته قلبي استوى القنديل في الهيكل

يا مهجتي بوحي على مجمر ياروح روحي للهوى رتلي
هذا الحبيب الحلو دربه يطفر نحوي لفتة الجفل
تلك قواريري مختومة تفتحت شوقا الى المقبل

غرفتنا لم تنفتح زهرة الا على شباكها المقفل
حيطانها ترفل في عربها وفود اطياف لدى مشعل
هذا سريري خافق قلبه مد بساط الورد للمختلي
يسمح يا شاغل بالي الخطى يبوح بالارحب والاسهل

مخدتي لانت ، ولمت على تخريمها حلم الهوى الامثل
تعقد اطيافا لدى خاطري في ظل ضوء احمر مطفل
ينشر في الاجواء اطيابه لصورة تنداح في داخلي
يزرع في الاشياء ريحانه ينفخ في الان شذى السامل

خطوته تمتد من لحنها رفوف حسون على جدول
يدق ، قلبي دق ، يا طيبه بين يديه جنتي تنجلي
تثاءبت حيطان بستاننا وفتحت عينا على المدخل
مددت زندي على عنبر رددت الحاني على بلبل

بوابة البستان ، خايلته في كل لمح للحشا مجتل
احجاره تورق من فرحة اشجاره ترقص في محفل

نفح المنا اشعل تذكارنا توثب الطير لدى منهل
فرشت احلامي لهمس الخطى والجفن والاهداب كي يعتلي
وفتحت نفسي ابوابها له الدنى والموعد الحلو لي

ليلتنا ، كادت نجوم السما تفتح باب النرجس المخملي
هذي لنا يا شاغلي وحدنا في غفلة الشاجي ونوم الخلي
ليلتنا يا من تعبدته قلبي استوى القنديل في الهيكل

علي شلق



عبد الغني العطري

امراء القصة في الشعر العربي

بقلم عبد الغني العطري

القصة فن من فنون الادب الجميلة ، تحتل فى الآداب الحديثة المكان الارفع ، ومن خلالها نستطيع ان نتعرف الى رقي الادب لدى الامم او تخلفه . وبقدر ما تكون القصة عميقة متينة ، فى ادب شعب من الشعوب ، يكون ادب ذلك الشعب قد بلغ شأوا بعيدا من الرقي والتقدم .

وكان من نصيب العرب ان تخلف ادبهم فى ميدان القصة، بينما تقدم فى فنون الشعر والنثر والخطابة . ومن اجل ذلك استطاع بعض الباحثين والمستشرقين ان ينالوا من ادب العرب ، وان يصموه بالنقص والتخلف عن آداب سائر الامم . وقد تكون دعوى هؤلاء الباحثين والمستشرقين على شيء من الحق ، ولكنها ليست على الحق كله ، لاننا وجدنا فى التراث العربي ، ولا سيما فى المقامات ما يبطل دعوى اولئك الباحثين والناقدين .

ويلذ لي اليوم ان اتناول بالبحث ضربا من القصة يمتاز بالطرافة والروعة ، واعني بذلك فن القصة الذي نجده فى بعض شعر العرب ، والذي كان رائده الاول – ان صح هذا التعبير – الشاعر الجاهلي الكندي امرا القيس .

ويغلب على الظن ان الشعراء العرب الذين نجد فى شعرهم قصصا ، او ما يشبه القصص، لم يعمدوا الى قول هذا الضرب من الشعر عمدا . ولم تكن غايتهم ان ينظموا شعرا قصصيا ، بل نظموه ليرووا فيه حوادث مغامراتهم وانباء زوراتهم . فجاءت القصة فيه عفو الخاطر ، لا تصنع فيها ولا تكلف . ولعل ابتعاد هذا الشعر عن التصنع والتكلف وانتزاع الشاعر اياه من صميم الواقع والحياة، يجعلنا نجد فيه لذة ومتعة،لا نجدهما فى سائر الشعر العربي.

اذا اردنا ان ننصف امرا القيس ، والا ناخذ برأي الدكتور طه حسين فى الشعر الجاهلي عامة ، وفى شعر الملك الضليل خاصة ، كان امرؤ القيس الشاعر الاول ، الذي فتح امام الاخرين باب الشعر القصصي .

وشعر امريء القيس فى القصة لا يعدو ان يكون محاولة، والمحاولة قد تنجح حينا ، وقد تفشل احيانا . وقد اصاب الملك الضليل بعض النجاح فى غزله القصصي ، وعنده المنصفون من مؤرخي الادب ، اول من فتح باب الشعر القصصي امام الشعراء .

يحدثنا شاعر بني كندة فى شعره هذا عن مغامراته ، ويروي لنا حوادثه مع معشوقاته ، والنساء اللواتي احبهن وعاشرهن وسما اليهن ، بعدما نام اهلوهن ، سمو حباب الماء حالا على حال . ويصف لنا اللقاء بينه وبين احدى محبوباته، والحديث الذي دار بينهما ، وكيف خافت المراة ان يفتضح امرهما ، والناس من حولهما ، وكيف انه اقسم انه لن يبرح مكانه ، ولو قطعوا راسه لديها واوصاله :

سموت اليها بعدما نام اهلها	سمو حباب الماء حالا على حال
فقالت : سباك الله انك فاضحي	الست ترى السمار والناس احوالي؟
فقلت : يمين الله لا انا بارح	ولو قطعوا راسي لديك واوصالي

ويروي لنا الشاعر فى معلقته قصته المشهورة مع العذارى ، يوم ذبح لهن ناقته ، فاخذن ياكلن من لحمها وشحمها . ويقص علينا ايضا حادثته مع احدى محبوباته، وكيف سعى اليها متجاوزا حراسا لها ومعشرا يحرصون على قتله ، فجاءها وهي تخلع ثيابها ، وتتأهب للنوم. فلما رأته انبته وعنفته ثم خرج واياها اخيرا ، وهي تجر وراءهما ذيل رداء لتخفي عن الانظار آثارهما :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها	تمتعت من لهو بها غير معجل
تجاوزت احراسا اليها ومعشرا	علي حراصا لو يسرون مقتلي
فجئت وقد نضت لنوم ثيابها	لدى الستر الا لبسة المتفضل
فقالت يمين الله ما لك حيلة	وما ان ارى عنك الغواية تنجلي
خرجت بها امشي تجر وراءنا	على اثرينا ذيل مرط مرحل

ولامريء القيس طرف واقاصيص نجدها فى مواضع مختلفة من ديوانه ومعلقته .

ومما هو جدير بالذكر ان امرا القيس لم ياتنا بهذا الضرب من الشعر كاملا ، وبالشكل الرائع الذي نجده عند ابن ابي ربيعة ، وانما كان له فضل السبق اليه ، وتوجيه الشعراء اليه من بعده . وقد كان هذا اللون من الشعر قليلا فى العصر الجاهلي ، ونحن لا نجد شبيها لشعر القصص الغرامي فى ذلك العصر ، الا فى شعر المنخل اليشكري، ولا سيما فى قصيدته الرائية عن المتجردة امراة النعمان (ادباء العرب ج١ ص ٣٢) .

واذا كان معظم الشعر الذي نجد فيه قصصا او ما يشبه القصص، قد اقتصر على الغزل ورواية مغامرة عاطفية، فان شاعرا اخر قد تفرد بلون من القصة، يختلف كل الاختلاف عن زملائه الاخرين واعني به الحطيئة . هذا الشاعر البادي يروي لنا في قصيدته الميمية قصة رائعة تمتاز بوصف دقيق، وتصوير بارع، وتحليل نفسي عميق. كل ذلك الى عقدة قصصية تنتهي بحل مناسب، ترتاح له النفس ويطمئن القلب .

وقصيدة الحطيئة هذه موجزة كل الايجاز، لا حشو فيها ولا اسهاب، بل الفاظ محدوده، تعبر عن معان كثيرة. وابطال القصة اعرابي في البيداء، جافي الطبع، خشن المعشر، يكره معاشرة الناس، وخوله امراته العجوز واولاده الثلاثة، الذين جعل منهم الجوع والهزال اشباحا، لا تكاد العين تراهم . وقد عاشوا في هذه الصحراء المجدبة، جياعا، حفاة عراة، ما عرفوا طعم الخبز والبر مذ عرفوا الحياة . وقد دفع الاعرابي الى حياة البادية هذه كرهه للناس ونفوره منهم . ولمح الاعرابي في الليل البهيم شبحا يدنو من خبائه، فارتاع وخاف، لان المكان مقفر موحش، وقد يكون الشبح لحيوان مفترس . وما لبث هذا الشعور ان تحول الى هم وقلق، حين ادرك ان القادم ضيف يبحث عن القرى . لقد اهتم الاعرابي واغتم، لانه مع زوجه واولاده يبيتون على الطوى منذ ثلاث ليال، وليس اشد ايلاما الى الاعرابي من العجز عن اكرام الضيف، فاخذ يتوسل الى الله، ويجار بالدعاء له، ان يسعفه بما يطعم ضيفه ويحفظ سمعته . ويهب ابنه، وقد ادرك ما يعانيه ابوه من الم وقلق وحيرة، فيعرض على ابيه ان يذبحه، ليقدمه طعاما لضيفه :

راى شبحا وسط الظلام فراعه — فلما بدى ضيفا تشمر واهتما
وقال : هيا رباه ضيف ولا قرى — بحقك لا تحرمه تا الليلة اللحما
فقال ابنه لما رآه بحيرة — ايا ابت اذبحني ويسر له طعما
ولا تعتذر بالعدم عل الذي طرا — يظن لنا مالا فيوسعنا ذما
فروى قليلا، ثم احجم برهة — وان هو لم يذبح فتاه فقد هما

وعندما تعقدت القصة، وبلغت أوجها من الحرج، انحلت عقدتها على ايسر سبيل، فقد استجاب الله لدعاء الاعرابي، فساق اليه قطيعا من حمر الوحش، اقبل يلتمس الري والماء . فاسرع الاعرابي نحو القطيع الظامىء، وفوف سهمه ولكنه ابى ان يطلق السهم قبل ان ترتوي ضحيته. فلما ارتوت اصاب بسهمه واحدة من القطيع واختارها وافرة اللحم والشحم . فلما سقطت انطلق نحوها متهللا مستبشرا، وعاد بها مسرعا الى اهله، ففرحوا ايما فرح، لا لانهم وجدوا طعاما بعد جوع كافر طويل، بل لانهم استطاعوا القيام بواجب الضيافة . ولما اطعم الاعرابي ضيفه واكرمه، احس بانه بات ابا عطوفا لذلك الضيف، وزوجه العجوز كانها ام رءوم له !

وقصيدة الحطيئة هذه تعتبر من روائع اثار العرب، وتمتاز عدا طابعها القصصي الفريد، بالوحدة الفنية، الامر الذي لم يالفه العرب من قبل .

واذا ما تركنا الحطيئة فرحا بضيفه وصيده . طاب لنا ان نلتفت الى الشاعر الذي قال بعضهم في شعره : « ما عصي الله بشيء كما عصي بشعر عمر بن ابي ربيعة » .

لقد كان عمر امير الشعراء الغزليين، غير مدافع . وكان شعره في الغزل القصصي، ومحادثة النساء، والحوار الذي يجري بينه وبين محبوباته درة في جبين الشعر العربي.

وقد استطاع عمر ببراعة فنه، وقوه اختراعه، ومقدرته الشعرية، ان يروي لنا حوادثه الغرامية، بشكل قصصي يستهوي القلوب . ولعل احسن ما نظمه « شاعر المراة » في عالم الشعر القصصي رائيته الشهيرة، التي يروي لنا فيها حادثته مع محبوبته « نعم »، وكيف سعى اليها ذات ليلة، بعد ان نام العواذل، وذوو العيون الزائدة على حد تعبيره — واطفئت الانوار، وغاب قمير، كان يهوى غيوبه، وخفض عنه الصوت . فاخذ يمشي مشية الحباب على سطح الماء . فلما اقبل عليها فاجاها . فصرخت بتحسرة، وكادت تجهر بالتحية، ثم عضت على بنانها خشية الفضيحة، واخذت تعاتبه على صنيعه :

وقالت وعضت بالبنان فضحتني — وانت امرؤ ميسور امرك اعسر
اريتك اذ هنا عليك الم تخف — رقيبا وحولي من عدوك حضر !
فوالله ما ادري اتعجيل حاجة — سرت بك ام قدنام من كنت تحذر!
فقلت لها بل قادني الشوق والهوى — اليك وما نفس من الناس تشعر
فقالت وقد لانت وافرخ روعها : — كلاك بحفظ ربك المتكبر
فانت ابا الخطاب غير مدافع — علي امير ما مكثت مؤمر
فبت قرير العين اعطيت حاجتي — اقبل فاها في الخلاء فاكثر

ويصف لنا بعد ذلك ليلته مع « نعم » وكيف تقاصرت تلك الليلة، وما كان ليله قبل ذلك يقصر . فلما تقضى الليل الا اقله، وكادت النجوم ان تغيب، اشارت بان اهل الحي قد حان وقت قيامهم، ولكن عزور، موعدا للقاء جديد لهما . وبينما هما كذلك، اذا بمناد يصيح بالقوم، داعيا اياهم الى الرحيل . فلما رات « نعم » من قد تنبه، رغبت اليه ان يدركها بحل ينقذ الموقف :

فقلت اباديهم فاما افوتهم — واما ينال السيف ثارا فيثار
فقالت : اتحقيقا لما قال كاشح — علينا وتصديقا لما كان يؤثر ؟
فان كان ما لا بد منه فغيره — من الامر ادنى للخفاء واستر
اقص على اختي بدء حديثنا — ومالي من ان تعلما متاخر
لعلهما ان تطلبا لك مخرجا — وان ترحبا سرا بما كنت احصر

فقامت الى اختيها، والدموع في عينيها، والذعر في صدرها، فقصت عليهما ما حدث، فارتاعتا بادىء بدء، ولكن احداهما اقترحت ان :

يقوم فيمشي بيننا متنكرا — فلا سرنا يفشو ولا هو يظهر
فكان مجني دون من كنت اتقي — ثلاث شخوص كاعبان ومعصر
فلما اجزنا ساحة الحي قلن لي : — اما تتقي الاعداء والليل مقمر ؟
وقلن اهذا دابك الليل سادرا — اما تستحي؟ او ترعوي؟ او تفكر؟
اذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا — لكي يحسبوا ان الهوى حيث تنظر

هذا عرض موجز لاهم ما جاء في رائية عمر، هذه القصيدة التي تعتبر احدى روائع شعرنا العربي، لما حوته من دقيق الوصف، ورقيق الغزل، وشيق الحوار . انها

لون جديد في الشعر العربي ، كشف امرؤ القيس اللثام عن بعضه ، ولم يتح لمن جاء بعده من الشعراء ان يحلق في الجو الذي حاول امرؤ ان يصفق بجناحيه فيه . ولو لم يكن لابن ابي ربيعة سوى هذه القصيدة لكفته فخرا وجاها ، لانها وحدها كافية لرفعه الى الاوج ، وجعله شاعرا تباهي به ربة الشعر وتبوءه عرش الشعراء الذين اجادوا في القصة الشعرية وبرعوا بها . ولكن ابن ابي ربيعة لم يكتف بهذه القصيدة القصصية وحدها ، وانما وقف كثيرا من شاعريته لنظم هذا الغزل الفني الجديد . وفي ديوانه كثير من امثال هذا الشعر القصصي الذي يستهوي القاريء ويأخذ بمجامع قلبه . وانظر اذا شئت الى قصيدته التي مطلعها :

راح صحبي ولم احيي النوارا وقليل لو عرجوا ان تزارا

ففيها يروي لنا حادثته مع محبوبته النوار ، وكيف فارقته ، وكاد يستطير عقله ولبه من لوعة الفراق ، إلى ان استطاع ان يهيىء لنفسه لقاء مع من يحب ، بمعونة بعض صحبه الاوفياء . ولنستمع اليه كيف يصف لنا لقاءه مع محبوبته ، ويصور هذا اللقاء تصويرا قصصيا ، فلا يدع منه زاوية دون ان يشبعها طلاء بريشته البارعة :

ثم اقبلت رافع الذيل اخفي الوطء اخشى العيون والنظارا
فالتقينا فرحبت حين سلمت وكفت دمعا من العين مارا
ثم قالت عند العتاب راينا منك عنا تجلدا وازورارا
قلت كلا لاه ابن عمك بل خفنا امورا كنا بها اغمارا
فجعلنا الصدود لما راينا قالة الناس بيننا استارا
وركبنا حالا لتكذب عنا قول من كان بالبنان اشارا

ويصطلحان بعد هذا العذر الطويل ، ويؤكد لصاحبه فيقول :

والليالي اذا نايت طوال وأراها ، اذا دنوت ، قصارا

ويقضي عمر عند النوار ليلة من احب لياليه ، ويظل عندها الى ان يظهر ضوء من الصبح ، فتنبهه قائلة :

يا ابن عمي فدتك نفسي اني اتقي كاشحا اذا قال جارا

ولو اردت التبسط في ذكر القصة عند ابن ابي ربيعة اكثر مما فعلت ، لضاق بي المقام ، ولكني اكتفي بالاشارة الى قصيدتين التي مطلع الاولى :

هاج فؤادي موقف ذكرني ما اعرف

ومطلع الثانية :

طال ليلي وتعناني الطرب واعتراني طول هم وغصب

ففيهما عذوبة ورقة وفيهما فن قصة ، لا يقل روعة وسحرا عن كثير من شعره القصصي .

وممن ضربوا بسهم وافر في القصة الشعرية الفرزدق الشاعر الاسلامي ، فقد راق له اسلوب ابن ابي ربيعة في الغزل القصصي ، واعجب به ، كما راق له من قبل اسلوب امريء القيس ، فحاول الفرزدق ان يحلق في الآفاق التي حلق فيها عمر ، ولكن خشونة شعره ، وابتعاد الفاظه وقوافيه عن رقة عمر ، لم تمهد له السبيل الذي سلكه من قبل امرؤ القيس وعمر . والفرزدق في قصصه الغرامي لم يكن سوى مقلد لمن جاء قبله ، فهو يروي لنا - كما روى امرؤ القيس وعمر - خبر زورته لامرأة يشتهيها ، ويصف كيف تجشم المشاق ، وصعد اليها بوساطة الحبال ، ثم قضى عندها مآربه وعاد من حيث اتى ، بعد ان دلت الحبل به امرأتان من اعلى المنزل ، ويصف لنا نزوله على الارض

فلما استوت رجلاي في الارض قالتا احي يرجى ام قتيل نحاذره
فقلت : ارفعا الاسباب لا يشعروا بنا ووليت في اعجاز ليل ابادره

ولعل ابرز ما يعيب غزل الفرزدق فحشه وخشونة لفظه ، وقلة الحوار العذب فيه ، ذلك الحوار الذي نال به عمر منزلته الرفيعة في الشعر القصصي .

ومن الجدير بالملاحظة حقا ان الشعراء الذين زاولوا فن القصة في الشعر قليلو العدد ، ضئيلو النتاج القصصي ، عرفنا بعضهم في الجاهلية والاسلام وسمعنا بعض قصصهم ، واخبار مغامراتهم وزوراتهم .

وتروي بعض كتب الادب ان انصار الامويين عندما إنهارت دولتهم وزال حكمهم وضعوا اسطورة السفياني شعرا ، والفوا الملاحم القصصية بالشعر والنثر ، وتناولوا فيها الدعوة الى الامويين واعادة حكمهم . وقد اتلفت هذه الملاحم في القرن الثالث للهجرة ، ولم يبق لها اثر خلال العصر العباسي .

واذا نحن تطلعنا الى الشعر في العهد العباسي ، لم نجد فيه من القصص شيئا ، اللهم سوى لمحات لا تناسق فيها ولا فن . ولكن ابا نواس ، ذلك الشاعر الماجن الذي تذكرنا خمرياته وتمهره بغزل ابن ابي ربيعة من حيث الطرافة والجدة والروعة . ذلك الشاعر الماجن العبقري يروي لنا طرفا من اخباره ومغامراته بشكل يشبه القصة . ونجد الشعر القصصي بوضوح لدى ابي نواس ، عندما نقرأ قصيدته التي مطلعها :

واحور ذمي طرقت فناءه بفتيان صدق ما ترى فيهم نكرا

ففيها يروي لنا حادثة من حوادث مجونه هذه خلاصتها :

« قرع ابو نواس وصحبه باب الذمي الجميل ، احور العينين ، فهب الذمي مذعورا خائفا ، فاقترب من الباب ، وسأل عن الطارقين . فاخبروه بانهم عصبة جاءوا سعيا وراء بنت الحان . فهدا روع الذمي واطمأن قلبه ، ثم فتح الباب ، فبدا الذمي فتى حسن الصورة والمنظر ، فسأله ابو نواس عن اسمه ، فاخبره الفتى الذمي بالاسم واللقب ، ثم اخبروه بانهم راغبون بخمرته المعتقة ، فاجابهم الى سؤلهم وقال : ان خمرته « قد احتجبت في خدرها حقبا عشرا » . ثم ادوا له خمسة دنانير ثمنا لخمرته ، وجلسوا يحتسون مع الساقي الجميل . ووصف ابو نواس بعد ذلك مجلس الشراب والساقي وتغزل بحسنه وعذوبته » .

هذه لمحة موجزة عن شعراء القصة في الادب العربي ، وما ازعم اني احطت فيها بكل ما قيل في الشعر القصصي عند العرب ، ولكني اطمع بان اكون قد اعطيت صورة عن هذا الفن من شعرنا العربي ، بعد ان راينا ان شعر القصة والملحمة يحتل منزلة رفيعة في آداب الامم الاخرى .

دمشق **عبد الغني العطري**

النبع الخامل

ضقت فى ساحة المدينة بالضجة والجهد وازدحام الطريق

فصحبت الصحراء يوما طويلا رائحا غاديا بغير رفيق ..!

واعتزال الورى يهدىء نفسي ان رماني الورى بشر محيق

يا جمال الصحراء والشمس تختال على الرمل في رواء الشروق

وانفساح الفضاء يركض بالآل سريعا كخاطفات البروق

فاذا اقبل الظلام تجلت رهبة الكون فى السكون العميق

* * *

سرت فى شاسع الفضاء بعيدا تاركا رفقتي فريدا وحيدا

غير ان الشجون تتبع اقدامي حشودا سوداء تقفو حشودا

اطرد الفوج جاهدا فاذا ولى بعيدا لمحت فوجا جديدا

قلت ماذا يغطني فى همومي وانا قد هربت منها طريدا

فرمقت الفضاء ابصر فيه مشهدا يشغل الشجي العميدا

فتجلى نبع من الماء صاف رف فى العين لؤلؤا منضودا

يا لسر الحياة جاد على الصحراء لكن تأففت ان يجودا

فتدانيت منه اشفي اوامي فغدا السلسل الشهي برودا

ذابت الفضة النقية ماء ضاع فى الرمل لا يرى مستفيدا

كان احرى ان ينبت الدوح رفافا عليه وان يشب مديدا

كان احرى ان يجمع الزهر فواحا نضيرا وان يضم الورودا

لم يجد جيرة يفيدون منه فغدا فى حياته مـوءودا !!

مثلما تدفن الكنوز من المسجد فى حفرة فتمضي بديدا

انا ابكي خموله فى قفار عاش فيها مضيعا منكودا

انها بيئة تجنت عليه لو عداها لنال حظا سعيدا

مثل نبع ينساب بين الروابي يغرس الخصب والرخاء الرغيدا

قدره مثل قدره فلماذا بات فى ثغره يعاني الجحودا

* * *

واجلت التفكير فى النبع حينا ثم سارعت عائدا فى الطريق

فرايت النبع الحزين يعاني ما اعانيه فى الورى من عقوق

انظم الشعر جيدا مستطابا فاض كالنبع بالنمير الدفوق

ثم ينسى فليس يرويه راو بل يوارى فى ليل لحد عميق

كان احرى ان يستجاد بتقدير وان يستعاد بالتصفيق

انا ابكي للنبع اذ صار مثلي فكلانا فى دمعه كالغريق

المنصورة — ج٠ع٠م٠

محمد رجب البيومي

خليل حاوي رائد « وجودية »

بقلم نسيم نصر

ابرز ميزات هذا المنتصف من القرن العشرين انه تفرد عن حقبات التاريخ كلها بما تخالط فيه من : فيض الاعماق الحضارية ، ومتشعب الثقافات الحديثة ، وروائع الفكر المولد المجدد ، وعجائب العلم المبدع .

وكان من نتائج هذه المخالطة التي لم تتوفر لهاحتى الان، عوامل المزيج ، ان غامت فيها المسالك والمذاهب ، وتلابست فيها المسائل والمشاكل ، فاذا بانسان الفكر وانسان الشعر، في هذا الخضم يعانيان مركبا ذاتيا غلبت عليه صفة الوجودية . غير ان هذه الصفة لا تجيز اعتبار ما نحن محاولون الاشارة اليه ، في الشعر الحديث ، شيئا صحيح النسبة الى الوجودية كمذهب فلسفي ، وضع خطوطه الاولى الفيلسوف كيردكغارد (١٨١٣-١٨٥٥) وعرف بابي الوجودية . وهو مذهب تتالت عليه محاولات نهجية تركته في حدود هذه العبارة :

« ليس للانسان جوهر محدود بصورة شاملة ، فالانسان هو ما يفعل وهو ما يقرر ، وهو بالتالي حر في ان يفعل ما يشاء وان يقرر ما يشاء . ولذلك عليه ان يتحمل مسؤولية ما يفعل وما يقرر ، لانه ليس للانسان مرجع غير ذاته ، فهو وحده يحمل عبء وجوده » .

وها نحن نعرض لما هذا الشعور بعبء الوجودمتدرجا من الذاتية الى الموضوعية . ثم الاحداث مشاركة ترتفع بمعاناة التجربة الى مستوى المعالجة الموضوعية التيتنزع الى المستمدات الفلسفية الوجودية .

بدا الشعر الحديث ، في العربية ، يتناول الشعور بـ « عبء الوجود » تناولا فيه من الحيرة الفكرية واللاادرية ، كما فيه لمحات من بداهة الفلسفة المطمئنة. كقول ابي ماضي :

مات النهار ابن الصباح	فلا تقولي كيف مات ؟
ان التامل في الحياة يزيد	الام الحياة
جئت لا ادري ولكني اتيت	ولقد ابصرت قدامي طريقا فمشيت
هو عبء على الحياة ثقيل	من يرى في الحياة عبئا ثقيلا
ايهذا الشاكي وما بك داء	كيف تغدو اذا غدوت عليلا ؟!

وفيه من قلق الشؤم الوجودي ، في مثل قول فوزي المعلوف ، معبرا عن تردي الانسان في مهاوي الشر :

نسي الخير حين اوغل في الشر	فداس الضمير في عصيانه
ملات قلبه الافاعي فلا يسمع	غير الفحيح في خفقانه
فاذا بالاذى وليد حجاه	واذا بالشرور بنت لسانه

ولم يتعد نحو هذين ومن نهج نهجهما نطاق التامل الواصل بين اسباب الوجود وعناصر الذات ، فبقي شعرهما مشدودا الى معالم الغنائية ، يحاول الحدس الخلاق ان يتفلت منها .

ومضى الشعراء الحديثون ، المجددون منهم والمولدون ، في منتصف هذا القرن ، في تكسير الطوق الغنائي لتتجاوب مفاهيم الانسان ومشاعره تجاوبا يعين على التعبير عن هذا القلق المصيري الآخذ بخناق الجيل . وفي عمل الشاعر على تحري كينونته الى جانب تحسس كيانه كان لا بد للشاعر الرائد المحس بعبء وجوده ، من أن يرود اعماقا وافاقا ما تصدى لها من تقدمه من شعراء العربية . من هذا الرود الواعي كان ما اسموه « وجودية » في الشعر العربي .

ولقد سبق لي ان قلت في خليل حاوي ، من خلال « نهر الرماد » :

هو شاعر تتجاوب في شعره الذاتية ، جادة الشعر العربي حتى الامس القريب ، والموضوعية الصعيد الفني الذي انطلق اليه خليل حاوي ، في طليعة الرواد الشعراء بالحرف العربي ... وهذا التفاعل الداخلي الخارجي ، او الذاتي الموضوعي ، هو نوع من الحمل العقلي الروحي لا يخلو من الالام ، ولكنها الام مولدة تشع عليها ابتسامة الخلق والعطاء .

فاذا كان مثل هذا القول يصح في خليل حاوي من خلال « نهر الرماد » استنادا الى ما فيه من القلق المصيري المستبقي شعلة من حرقة الذات المغناة ، فان قولا اخر يجب ان يقال فيه ، من خلال مجموعته « الناي والريح » . وهذا القول هو ان شاعر « السندباد في رحلته الثامنة » قد فك القيود عن حدسه الخلاق وحطم بصورة نهائية قوقعة الغنائية ليخرج الى رحاب وجودية اشرق عليها الايمان بالانسان قادرا على تحقيق وجوده .

وها انا ذا محاول اثبات صحة هذا الراي بالاستناد الى مختارات قليلة من مجموعتي شعر الحاوي .

فهاكه معانيا عنف القلق المصيري في «عودة الى سدوم» من « نهر الرماد » يقول :

باسم ما احرقت من نفسي بنفسي
لاصفي وجه تاريخي وامسي
باسم هذا الصبح في « صنين » ،
والعتمة خلفي ، وجحيم الذكريات :
ليحل الخصب ولتجر الينابيع
ويمضي « الخضر » في أثر الغزاة
فارس يولد من حبي لاطفالي
وحبي للحياة
لتحل المعجزات
رب ماذا ؟
رب ماذا ؟
هل تعود المعجزات ؟

الى راحلة

ترتيلة حزن

الفجر يفترش الشوارع والبيوت
والليـل يهـرب
والنجوم تغيب عن عيني
تودعنـي .. تمـوت
وفحيح دقات النواقيس البليدة يستحث النائمين
يهـز الاف الرؤى
متقطع الانات .. مرتعش الرنيـن
وخطاي تزحف للكنيسة ... والنساء
حولي يبعثرن الدمـوع
ويشتكيـن الـى يسوع
ولنسمـاء
ويضعـن ازهارا على جثمانك الغافي
وتلتمع شعلـة « الساعور » احداق الشموع
وتطوف اصداء النشيـج
في كل زاوية ... فتمتزج الصلاة
بحرقـة المهج الممزقة الحزينـة
وتغيض انفـاس الراسيـم الاخيرة
في مدامعنـا السخينـة
ويعـود ابنـاك ... بـلا ام
وطفلتك الصغيـرة
ترسل الضحكـات ... لا تدري
بمـا يجري
هنـالك ... يا فقيدتنـا الحبيبة

بغـداد — الفريد سمعان

غير ان خليلا كان يتهيأ للتخلص من هذه الحرقة المغناة، اذ عبر على « الجسر » اخر نشيد من «نهر الرماد» الى مسرحة جديدة تبتل فيها هذه الحرقة بتراوح بين « الناي والريح » لتذوب ، اخر الامر ، في مغامرة سندبادية .

قـال في اخر « الجسر » :

« ... اخرسي يا بومة تقرع صدري
بومة التاريخ مني ما تريد ؟
في صناديقي كنوز لا تبيد :
فرح الايـدي التي اعطت ،
وايمـان وذكرى ،
ان لـي جمـرا وخمـرا
ان لي اطفال اترابي
ولي في حبهم خمـر وزاد ،
مـن حصاد الحقل عندي ما كفاني
وكفاني ان لي عيـد الحصاد ،
يـا معاد الثلج لـن اخشاك
لـي جمر وخمر للمعـاد . »

هكذا نرى الشاعر بعد ان اخرس بومة التاريخ ، التي حاولت ان تجره الى هزيمة القلق المصيري ، كشف عـن كنوزه التي لا تبيد . ولئن كان في بعض مقاطع « النـاي والريح » ما يذكر بشيء من الهزيمة ، فانه ينتهي الى هزم الهزيمة في اخر « وجوه السندباد » اذ يقول في « الوجـه السرمدي » منها مفلسفا وجوده ووجودها :

اسندي الانقاض بالانقـاض
شديها .. على صدري اطمئني ،
سـوف تخضر ،
غـدا تخضر في اعضاء طفل
عمـره منـك ومني
دمنـا في دمـه يسترجـع
الخصب المغنـي ،
حلمـه ذكرى لنـا
رجـع لما كنـا وكـان ،
ويمر العمـر مهزومـا
ويعـوي عنـد رجليـه
ورجلينـا الزمـان

وما ان يشرف الشاعر السندباد على اخر رحلته الثامنة حتى يتماثل في ذاته الايمان بالانسان وبطولـة التضحية ، ركنا التجربة المحققة وجود الانسان ، فينتهي الى هـذا النـداء الكبير :

« ... ربي ، لماذا شاخ في الرؤيـا
دخـان احمر ونـار ؟
احببت لو كانت يدي سيـلا ،
ثلوجـا تمسح الذنـوب
من عفن الامس تنمي الكرم والطيوب ،
تضيع في بحري التماسيح
وحقـد الانهر الموحلـة
وينبع البلسم مـن جرح
عـلى الجلجلة .

اجل ، لقد اطمان خليل حاوي الى حسن ارتياده اعماق الانسان وآفاقه ارتياد من عرف ان يفيد من حمله عبء وجـوده ، فيتحرى كينونته الى جـانب حسه بكيانـه ، ويخلص الى القـول :

عـدت اليكم شاعرا في نمه بشاره
يقـول مـا يقول
بفطرة تحس ما في رحم الفصول
تراه قبـل ان يولـد في الفصول

نسيم نصر

قصة

مأساة صغيرة

بقلم عبد الرحمن البيك

كانت الطريق مظلمة ، وثمة زخات من المطر تهطل على زجاج الشاحنة فتشكل اخاديد تختلط ببعضها تارة وتارة اخرى تزيلها المسحة الآلية. وعبدالله خلف المقود يحملق عينيه في جهد وانفعال ليرى معالم الطريق ثم لا يلبث ان يغفل عن ذلك. فيحاول دفع قلقه ومخاوفه من جراء توقعه حدوث انفجار في الاطار الامامي .

ومن بعيد كانت تظهر بضع شاحنات ، وهي تسير سيرا وئيدا ، فما ان تمر بجانبه حتى تنفرج اساريره وينجلي الغم عن صدره .

وبعد لحظة رمق المعاون ، وكان المعاون – واسمه مصطفى – يغط في نوم عميق ، ومع ذلك فقد وجه اليه الخطاب قائلا : « يا لك من معاون مهمل .. جامد .. ان اي قطعة في هذه الشاحنة خير منك .. لعنك الله يا مصطفى .. مصطفى »! وانتفض المعاون من غفوته ثم فرك عينيه وراح يحملق من خلف الزجاج . وقال عبد الله متهكما : « بلا فائدة .. انا اعرف انك ما تزال نائما .. بهيم .. قل لي كيف خالفتني يا ح ي و ا ن .. الم انبهك واحذرك من ان تضع الدولاب الاحتياطي عند المصلح كراكين الا تعلم ان اليوم احد .. وان كراكين ارمني .. آه يا لمصيبتي .. » ولم ينبس مصطفى ببنت شفة ، الا انه سرعان ما اتكأ على الباب وغط في نوم عميق ، ثم ما لبث حتى اخذ يبعث شخيرا طغى على صوت المحرك ، وعاد عبد الله ليجد نفسه وحيدا لا يشغله الا الخوف من انفجار الدولاب . وختم نظرته نحو المعاون قائلا: «قليل حس»

وكان ان اقتربت شاحنة منه ، فهدأ سيره واخذ يطفىء النور ويشعله ثم يطفئه ويشعله ، ثم ما لبث حتى ردد في نفسه الكلمات التقليدية التي تتدفق على لسانه دون شعور منه : « رويدا .. رويدا .. اطفىء النور .. قلت اطفىء النور يا حمار .. او تظن انني سوف احيد عن الطريق .. قلت اطفىء النور آه .. الدولاب .. الدولاب .. » . ومضت الشاحنة من جانبه دون ان تطفىء مصابيحها ، مما اضطر عبد الله ان يحيد عن الطريق ولكنه ما كاد يستقيم بشاحنته حتى دوى صوت الدولاب ، فاهتز المقود بين يديه هزات عنيفة .. فصاح بملء صوته « يا ساتر يا ساتر .. » ثم ثبت ذراعيه فوق المقود في عزم وصلابة وضغط على الفرامل فوقفت الشاحنة .

حدث هذا الامر بالقرب من خان شيخون . وكان منذ غادر حلب يلعن مصطفى لانه وضع الدولاب الاحتياطي عند كراكين الارمني . واما مصطفى فقد استيقظ على دوي الانفجار ، ولكنه لم يقل شيئا ، فقد عرف انه مذنب حقا. وعاد عبد الله الى حلب.

وفي صبيحة اليوم التالي قصد محل كراكين ولكن كراكين انباه ان الاطار لم يعد يصلح للاستعمال لانه تبين ان الكتان الداخلي مهترىء وان باقي اجزاء الاطار قد فسدت بسبب تراخ شامل طرا على الاطار ، وانه لم يعد يصلح الا في صناعة التحويل التي تستخرج منه نعال القرويين .

وقرر عبد الله ان يقترض من ابي عرابي مبلغ خمسمائة ليرة من اجل شراء اطار جديد . وما ان فعل حتى قصد مستودعات هاني عزوز واخذ يساوم على اطار ، ولكنه بعد حين خرج وهو يقول « الاسعار غالية » .

وفي محلات فيك لبيع الاطارات ، ناقش صاحب المحل واتهم المستوردين بالاستغلال . ولكن صاحب محلات فيك لم يناظره بل جلس خلف طاولته وتظاهر بانه يطالع جريدة الصباح .

وقصد عبد الله بعد ذلك الى محلات كوديير ، وهناك اشار عليه احد السائقين – وكان يعقد صفقة لحساب معلمه – ان يشتري اطارا مستعملا واقتنع عبد الله بالفكرة ، فاندفع الى محلات طعمة معرواي لبيع الاطارات المستعملة باسعار متهاودة وهناك تغير مجرى الاحداث ، فبينما كان اجير المحل الذي يبيع اطارات مستعملة باسعار متهاودة ، يناوله اطارا موضوعا على سقالة عالية ، انفلت الاطار من يديه ووقع على ساق عبد الله فانكسرت

وحينما نقل الى منزله ، كانت خواطره قد تجمعت حول سؤال واحد: « كيف انجو من هذا المازق.. الاقساط استحقت .. يجب دفعها في اخر الشهر واثمان الاطارات المشتراة بالتقسيط .. لم ادفع منها الا جزءا ضئيلا .. يا الهي ماذا صنعت .. وكيف سينتهي هذا الامر ..؟ » .

وحينما زاره صديقه ابو توفيق رجاه ان يدفع مبلغ الخمسمائة ليرة الى الوكالة التي باعته الشاحنة . ولكن زوجته حالت بينه وبين تنفيذ هذا الامر قائلة له :

– وماذا عن ساقك ..؟

– سوف ادعها كما هي .

– وكيف ؟.. ان ساقك مكسورة ، وهي بحاجة الى تصليح .. عفوا الى تجبير ..

– بل قولي انها بحاجة الى تصليح

وانصرف ابو توفيق دون ان ينفذ مطلب عبد الله . ووجد عبد الله نفسه مرة ثانية مع الخوف والقلق . فماذا يفعل ، الشاحنة تنتظر .. واخر الشهر يدنو شيئا فشيئا .. الاقساط تبرز له وكانها مخالب تعبث في عنقه .. واشياء كثيرة كانت تحول النور في عينيه الى حلقة .

وبعد فترة من انصراف صديقه ، سأل زوجته :

ـ كم ستكلف العملية ؟.

ـ اقل من مائة ليرة .

ـ اقل من مائة ليرة ؟.. اتهذين، ان السائق عبد الحفيظ كلفته عملية تجبير ساقه اكثر من الف ليرة ..

ـ بلى .. انها ستكلف خمسمائة ليرة .. الا تعلم انك ستنقذنفسك؟. والا ..

ـ والا ماذا ؟.. انت غبية !! ان الشاحنة متعطلة عند خان شيخون ان اي تقصير في تشغيلهـــا سوف يوقعني في عجز كبير .. في نهـاية الشهر يستحق القسط للفابريكة.. وفي الشهر الذي يليه يستحق القسط الاخر ..

ـ اذن ما هو قصدك ؟

ـ تسألين عن قصدي ؟ انت تعرفينه

ـ بل اجهله

ـ اذن سوف اصارحك .. انت تعلمين يا عزيزتي أن ثمن الشاحنة لم اف منه الا جزءا ضئيلا .. وان الديون قد تراكمت علي من كـل النواحي .. ثم انه لم يبق مـن يستطيع اقراضي فلقد جربت الجميع واستنفدت الاصدقاء ، ولم يعـد بالامكان ايجاد مصـدر جديـد للاستقراض فماذا تريدن ان افعـل والحالة هذه ؟

ـ معنى ذلك انك تريد ان تبقـى مكسور الساق طريح الفراش .

ـ اجل .. فانا افضل صحـة الشاحنة على صحتي

ـ هذا تزوير في الحديث

ـ بـل هو الصراط المستقيم ، ان الشاحنة ، اذاما اشتريت لهاالدولاب المستعمل من محلات طعمهمعرواي، ستعمل بلا توقف ، وسوف توفر لي في مدى شهر مبلغ خمسماية ليرة.. وعند ذلك اجري العملية ..

ـ ومن سيقود الشاحنة ، هـل تنوي تسليمها الى مصطفى الذي لا يفارق النوم عينيه..؟ اتريدان يفقدك اياها في لمح البصر ؟

ـ لا .. لا .. انا اعرف مـاذا اعمل ..

ـ بل انت هنا لا تعرف مـاذا ستفعل .. فالناس لا يؤتمن لهـم جانب

ـ صلي على النبي يا عزيزتي انك دائما تختلفين معي وفي النهايـة تتفقين، او تظنين انني غبي كي اسلم الشاحنة الى قليل الحس .. ان ابا عرابي ، جازاه الله خيرا ، سيستلم الشاحنة فيدير امرها .. آه لقـد بلغت ديون أبي عرابي اكثر من الفين ليرة .. بيض الله وجهه

وبكت الزوجة من فرط حزنها.. وشعر عبد الله بالحرج ، ثم قال :

ـ اتبكين ؟.. هذه عادة الاطفال الصغار فاجابته بصوت تخنقهرعشات البكاء .

ـ انني لا اكاد اتصور مقدار الالم الذي سوف تتحملـه لغايـة ان يتوفر لدينا المبلغ هذا مستحيل .. هذا مستحيل ..

ـ ولكن .. ولكن يجب ان تعلمي انني اختص بنفسـي .. فلا تفكري بشيء يا عزيزتي .. ان الالم ملكـي وانا اعاهدك الا اسمعك انةولا صرخة ازعاج ..

وقاطعته زوجته والدموع تنهمر من عينيها :

ـ بل سوف اسمع انات الـك قبل ان تسمعها انت ،واحس بالمض باكثر مما تحس به انت .. ان هذا مستحيل .

في صبيحة اليوم الثاني ، ارتفعت درجة حرارته نصف درجة ،واحس بعض الضيق ولكنه لم يبح بهلاحد، وعند المساء كانت درجة حرارته قد بلغت الاربعين ، وكان ابو عرابـي وبعض الرفاق من الحمالين والسائقين قد حضروا لزيارة عبدالله . فلما التفوا حوله قال مخاطبا ابا عرابي :

ـ انني ساعطيك خمسماية لـيرة يا ابا عرابي كي تشتري لي حذاء .. اسمعت ؟

واظهر ابو عرابي تعجبـه من كلمة الحذاء التي وردت في العبارة ،ولكن رفاقه سرعان ما افهموه بالايماءة بانه يهذي ، فاستدرك قائلا :

ـ كما تريد يا عبدالله

فقال عبدالله :

ـ احسنت يا اخي انك تستطيع ان تفهم ، ان زوجتي تصر علـى تصليح رجلي ، ولكن رجلي سليمة ، اليس كذلك ؟

فصاح الجميع

ـ صحيح .. صحيح ..

ـ انني منذ ساعتين ، وصلتمن بيروت كنت احمل عشرة اطنان قطن وقد قابلتني زوجتي بالبكاء .. ان النساء سريعات التأثر ، اليس كذلك؟

ـ صحيح .. صحيح ..

ـ آه .. انني احس بنار تحترق في جوفي ، الشاحنة عند خانشيخون يا جماعة .. انهـا تحـت الامطـار المنهمرة .. انها لن تلبث حتـى تحترق .. هيا قل لي بربك يا ابا عرابي هل احترقت شاحنتي ..

وسعل ابو عرابي ثم قال :

ـ كلا : اقسم لك بشرفي انها لـم تحترق ..

ـ اذن ماذا احترق ؟..

ـ احترقت شاحنة ابو خليل ..

ـ آه مسكين ابو خليل .. انـه غارق بالديون وصاحب عائلة كبيرة انه مثلي ..

وشعر عبد الله بالتعب ، فحاول ان يقول شيئا ولكنـه اغمض عينيه وراح يحرك شفتيه فقط ، وتسلـل العيدون واحداً تلـو الاخر الـى ان حضر الطبيب نديم ، وكانت الزوجة قد ذهبت في طلبه منذ ساعة ، وبقي ابو عرابي في حراسته ، ولما جلس نديم قربه ، فتح عينيه وجال بطرفه الزائغ انحاء الغرفة ، ثم عاد وحـدق في وجهالطبيب نديم. فسأله الطبيب:

ـ هل عرفتني ؟

ـ من انت ؟.. اوه .. مصطفى المعاون لعنك الله ، كيـف تركـت الشاحنة لوحدها . والتفت الى ابي

عارية الاغصان

رجعت ، طال بك التطواف والسفر ... مع الرياح التي يستاقها القدر
رجعت ، ما برحت نفسي وان سئمت ... تحنو ، وشوقي وان جافاك يستعر
رجعت ، فى مأتم الازهار شاحبة ... يموت فى شفتيك الورد والزهر
رجعت ، قولي مساء طيبا ولو اعتل ... الحياء على خديك والخفر
ولا تخافي عتابي انني سئم ... من العتاب لمن خانوا ومن هجروا
ولا تخافي عيوني بعد ان شربت ... سنا مرافئها الظلماء والقمر
تجرني واضحكي ان كنت خالية ... وتطمعين ؟ لعل الليل ينحسر
ويشرق القمر الفضي فى شفة ... مشبوهة كم تدلى فوقها قمر
اذ الاريج على اورادها ثمل ... عهد الصبا ، وكروم الصيف تعتصر

بنت الجنوب ، حقول الارض شاحبة ... والريح تركض فى الارياف والصور
وما انقضى من شهور الخمر فات ، فلا ... تاسي لقد فات والثمار قد نفروا
سقيت عينيك خمرا طيبا ومنى ... بيضا ، فاهرق خمري والمنى قدر

وعدت عارية الاغصان فارغة العينين يقبع فى غوربهما الحذر
زهور عمرك فى اللذات ذابلة ... وللخطايا على اوراقها اثر
بنت الجنوب ، صليب النار منتصب ... والعابرون على اخشابه البشر
فلا تطيلي حبال الصمت من ندم ... كل الخطايا لمن يمضي ستغتفر

عبد الحميد بعلبكي

عرابي وقال :

ـ اكثر من عشرين مرة اوصينه الا يضع الدولاب الاحتياطي عند كراكين .. وقاطعه نديم قائلا :

ـ اذن فانت لا تعرف من يكلمك انا الدكتور نديم ..

ـ اهلا دكتور نديم .. لقد ظننتك المعاون مصطفى

ـ اذن .. فماذا تقول بشأن العملية ..

ـ اية عملية .. انني ارفض كل الرفض دفع قرش واحد فى هذا السبيل ..

ـ ولكنك لن تنجو من هذه الحالة

ـ من قال .. انني لست بخير فمنذ نصف ساعة وصلت من بيروت حاملا قطنا .

ـ ولكن لا يوجد قطن فى بيروت.

ـ هذا من اختصاصي ..

ـ لا باس كيف ترى صحتك الان؟

ـ انني احس بتعب شديد ..

ـ اتعرف السبب ..

ـ اجل .. انني اذكر سبب ذلك لقد حملت على ظهري القطن جميعه. كنت اريد ان اخفف عن الشاحنة .. الاطارات اشرفت على التلف وهي لم توف ثمنها بعد . انني اشعر بتعب شديد .. ماذا تفعل يا دكتور ... ماذا تفعل يا دكتور ؟..

ـ لا شيء .. لا شيء ..

وزلفه المخدر .. فاذا به يهدأ بعد لحظات واذا ثورته الجنونية تتحول الى شبه موت .

اجريت له العملية فى مستشفى الكلمة ، وكان مبلغ الخمسماية ليرة قد عثر عليه فى جوربه .. وبعد شهرين .. نقل الى منزله وقد عاده اشخاص عديدون .. كانوا جميعا يدعون السماء ان تمنحه الشفاء السريع .. انهم لا يخسرون شيئا .

وبعد ايام خف سيل الناس ولم يعد عبدالله يجد قربه الا زوجته وعكازين من الخشب وحذاء ذي كعب عال . اما الشاحنة فقد بيعت واقتسم الدائنون ثمنها ، فى حين ان المعاون مصطفى وجد عملا عند رجل اخر.. اما يوسف وهو الابن الصغير لعبدالله فقد ترك المدرسة وراح يعمل عند رجل يمتلك آلة نسيج يحيك عليها القمصان الداخلية . وكان كلما عاد مساء من عمله احتضنه ثم قبله .. ثم لا يلبث حتى يعبث بشعره الاشقر الجميل ليستخلص نتف القطن المتطاير .. ثم يقول .. كم كان شعرك جميلا وانت صغير ..آه يا ولدي انني لم ارد لك هذا ..

حلب — عبدالرحمن البيك



وديـع فلسطيـن

معالم الشخصية الادبية لرضوان ابرهيم

بقلم وديـع فلسطين

عرفت الصديق الحميم رضوان ابراهيم منذ مولده الادبي لعشر سنوات خلون ، وكان شابا طري العودخجولا تبدهك منه دماثة خلق ، وطيبة نفس ، وعفة لسان وضمير ، وصدق تعبير ، فاذا جلست اليه راعك منه علم غزير ورأي ناضج بصير وذهن وقاد مستنير ووفاء للرسالة الادبية منقطع النظير وتطلع الى المثل العليا فى المروءة والاستقامة والنزعة الانسانية، مع هدوء شديد واعراض عن الادعاء والخيلاء بعيد.

كنا يومئذ جماعة من الاصدقاء ، تعاهدنا على ميثاق غير مكتوب يدعونا الى الاجتماع ظهر كل يوم جمعة فى دار «المقتطف» ـ حيث كنت اعمل ـ نتسامر ونتبادل الشهي من احاديث الادب واخبار الادباء ؛ فيغشى ندوتنا اصدقاء «للمقتطف»، منهم المقيم فى القاهرة ، ومنهم الظاعن الوافد من امصار العروبة على اختلافها . وفى هذه المجالس الماتعة نعمنا بمودة اعلام المفكرين فى جيلنا: سلامه موسى ومحمود تيمور وحسن كامل الصيرفى ومحمد عبدالغني حسن ومحمود ابو الوفا وخالد محمد خالد وسيد قطب ومبارك ابرهيم وابرهيم الابياري ومحمود واحمد محمد شاكر وصلاح الدين الشريف ومصطفى عبداللطيف السحرتي ومحمد عبد المنعم خفاجي والدكاترة ابرهيم ناجي واحمد فؤاد الاهواني ومراد كامل وعثمان امين ويوسف مراد وباهور لبيب ومحمد يوسف موسى ومختار الوكيل وحمدي البكري وعبدالحميد يونس فضلا عن رؤساء تحرير «المقتطف» المتعاقبين نقولا الحداد واسماعيل مظهر وسامي الجريديني. وام مجلسنا من سورية الامير مصطفى الشهابي والشيخ عبدالقادر المغربي والدكتور زكي المحاسني وقرينته الفضلى السيدة وداد سكاكيني ونجيب الريس وسامي الكيالي والدكتور سامي الدهان ونزار قباني ، ومن العراق رفائيل بطي وحسين جميل والدكتور عبدالرزاق محي الدين ونازك الملائكة ومشكور الاسدي ، ومن فلسطين خليل السكاكيني وقدري حافظ طوقان وحمدي الحسيني وكامل السوافيري ، ومن الحجاز عبدالله القصيمي وعبدالقدوس الانصاري وعبدالله بلخير وفؤاد شاكر وعبدالله عريف وطاهر زمخشري وحسن عبدالله القرشي وصالح جمال الحريري ، ومن الخليج العربي ابرهيم العريض ومحمد سعيد المسلم ، ومن لبنان الياس خليل زخريا وغيره وغيرهم من ادباء العروبة الذين تكل الذاكرة عن احصائهم.

وذات يوم اهل على مكتبي رضوان ابراهيم على غير معرفة سابقة ، وبادرني بقوله : «جئت اليك عملا بوصية الدكتور احمد زكي ابي شادي لاتعرف بك» ، فكان بيننا منذ اللقاء الاول وداد بل اخوة حميمة ، نلتقي على غير ميعاد فى ندوة « المقتطف » بين اولئك الاعلام النابهين ، ونتواعد على اللقيا فى غير « المقتطف »، وتجمعنا آصرة الادب فى منتدياته ، ولكن لقاءنا القلبي لم تنفصم عراه حتى بعد ان طوى « المقتطف » آخر صفحة فى تاريخه المجيد المديد، وحتى بعد ان تبدد رواد ندوة « المقتطف » فارتفعت الحياة ببعضهم وانحطت ببعضهم الاخر ولفت المنون بعضا غيرهم فى بردتها .

وعلى صفحات « المقتطف » شهدت مولد رضوان ابرهيم الاديب ، وعلى اديم تلك الصحائف البيض حبا هذا الاديب المرجو للغد ، فكان اول مقال له تقريظا لكتابين ، وقد نشر فى « مقتطف » فبراير ١٩٥١ ، ثم توالت فصوله فى الثقافة والنقد وقضايا الفكر الى ان ودعنا « المقتطف » فى ديسمبر ١٩٥٢ الوداع الاخير وفى الصدر حسرات وفى النفس قلق على مستقبل الادب .

ولكن رضوان ابرهيم الاديب ولد مكتمل النمو ، فليس فى « المقتطف » مجال للمبتدئين ، وانما مجاله الوحيد للفحول الذين رسخت اقدامهم واشتدت سواعدهم وصلبت اعوادهم ومرنت اقلامهم واختمر تفكيرهم وارتفعت جباههم وتكاملت شخصياتهم الادبية . وسرعان ما انطلق رضوان بشبابه وعلمه وبيانه وذهنه الصافي فى كل منطلق، حتى ضاقت به دنيا مصر، فعبر التخوم الى لبنان والحجاز والبحرين والكويت والاردن وشمال افريقية يكتب فى دورياتها الادبية ويتصل بادبائها ، وتسلل الى المهاجر ، بل اقتحمها على اصحابها ، فكتب فى صحفها وكاتب اعلام المهجريين . وهكذا اصبح رضوان ابرهيم اديبا عربيا مشاعا ، تتنازعه الاقطار العربية وتخطب وده المهاجر

الامريكية ، ويذيع اسمه في كل ركن ناطق بالضاد في المعمور، وهو اليوم ذخر وفخر وطاقة ذات زخم .

واذا رمنا تبيان الاعمال الادبية الجليلة التي اضطلع بها رضوان في عقد من الزمان اعيتنا محاولة الحصر لنتاج ضخم متشعب غير محصور ، ولكن في الوسع ان نقول ان آية رضوان الكبرى تكمن في اربع نقاط هي : السفارة بين ادباء العرب ، والغيرة على التراث العربي والذياد عن حياض الضاد ، واعلاء رسالة الادب والفكر والثقافة .

اما السفارة التي قام بها رضوان ابرهيم بين ادباء العروبة ، فهي امتداد للسفارة المشرفة التي اداها احمد حسن الزيات وانيس الخوري المقدسي ومحمد عبد الغني حسن وحسن كامل الصيرفي والبير اديب والدكتور احمد زكي ابو شادي ومصطفى السحرتي ، اولئك الذين آمنوا بعروبة الادب ونزعوا عنهم ثياب الاقليمية البالية ، وكانوا في جميع كتاباتهم مدركين ان الادب والعروبة لصيقان لا يفترقان ، وان كل معالجة لقضية ادبية ينبغي ان تتم على صعيد عربي عام. وقد بكر رضوان في معرفة هذه الحقيقة، وعمل على اشاعة الالفة الادبية بين امصار العروبة باقصى ما يستطيع ، متطوعا متفانيا باذلا من صميم ذاته ، مؤمنا ان راية الفكر تعلو على كل راية عداها . ولا عجب ان تنجح سفارة رضوان ابرهيم ، ولكن العجب كل العجب ان يخلو مكان رضوان في مؤتمرات ادباء العرب واتحادات ادباء العرب وما اليها من المجالس التي تجتمع وتنفض فتتخم البطون ويرفه عن النفس في رحلات ونزهات وتلتقط الصور التذكارية ، وكفى !

ومن دلائل غيرة رضوان ابرهيم على التراث العربي انه اصدر كتبا نفيسة محققة من التراث العربي المعاصر والقديم، فيسر وحقق « مقدمة ابن خلدون » على نحو مشرف يجلو صورة العالم في رضوان ابرهيم . وجمع اطراف كتب ثلاثة من وضع الدكتور احمد زكي ابي شادي هي « الاسلام الحي » و « عظمة الاسلام » و «شعراء العرب المعاصرون ». ولولا تضحيات رضوان ابرهيم في الوقت والجهد بل المال لظلت هذه الكتب موزعة الاوراق على جانبي المحيط .ولم يكتف رضوان ببعث آثار ابي شادي النثرية المخطوطة ،بل استنسخ شعره المهجري كله ، وفي عزمه ان ينشره على الملأ في دواوين اربعة تحمل الاسماء التي اختارها لها ابو شادي وهي « الانسان الجديد » و « النيروز الحر » و « من اناشيد الحياة » و « ايزيس » .وفي ظني ان رضوان ابرهيم اهل للثقة في كل ما يفعل ، وهي ثقة شفيعها الوحيد امانته ودقته وحيوية ضميره ، فهو لا يعرف السوقية الشوهاء ولا يتوسل باساليبها في ما يقوم به من تحقيق وبحث ، ولهذا جاءت كتبه المحققة ثمينة بالتجلة ، تلقي روح الاطمئنان الكامل في نفس كل راجع اليها راغب في الانتفاع بها . ولقد استفاضت شكوى ابي شادي من استهانة الناشرين بادبه واهمالهم في التصحيح والمراجعة ، ولكن شكواه بطلت حين اشرف رضوان ابرهيم على بعث تراثه . ولعل روح ابي شادي تقر في خلدها حين تخرج الدواوين الاربعة خلوا من الخطأ ومما هو شر من الخطأ كالبتر والحذف والتعديل والتاويل ، على ما نرجو ونامل.

واعرف في رضوان ابرهيم ذيادا عن الضاد وعن القيم الفكرية والخلقية جميعا في فصول مسهبة نشرها في « الاديب » و « المقتطف » و « البعثة » الكويتية وغيرها . على انه بلور تلك الاراء الشتيتة في كتابه « ازمة التعبير الادبي » الذي وضعه بالاشتراك مع ابرهيم الابياري ، وفيه عامل الضاد ككائن حي متطور نام ، ونظر الى مشكلاتها نظرة خبرة ومعاناة فاستطاع ان يمحض القارىء خير النصائح الهادية في التعبير بالضاد تعبيرا بيانيا صحيحا حيا مع مرونة وسلاسة ودقة . واسلوب رضوان اسلوب دينامي، وهو يحسن انتقاء الالفاظ وتحريكها لتؤدي القصد المامول من اقرب طريق . وقد هان على رضوان ان يتخلى عن نضفضة المعاني وعبء المحسنات اللفظية وان يأخذ بالمنهج الغربي في الكتابة النيرة فيحدد قصده في أوضح صوره، ويشرح غاياته ببلاغة الايجاز وفصاحة الالفاظ .

اما الخصيصة الرابعة من خصائص رضوان ابرهيم الادبية فهي استهدافه رسالة ادبية عالية المرتقى . لقد عرف مسؤولية القلم والفكر ، فارتفع الى منسوب تلك المسؤولية واجتهد في الاستزادة من العلم والخبرة ، ولا اخاله الا تلميذا دؤوبا لا يكف عن طلب العلم في نهم مع حسن هضم وسلامة استيعاب . ولقد تعلم رضوان لغة اجنبية عصية هي اللغة الروسية لكي يستطيع ان ينقل منها مباشرة كتبا للناشئة العربية تضاف الى المكتبة التي شرع يصدرها من وقت مضى . والتحق بمعهد الدراسات العربية العالية في جامعة الدول العربية ليزداد تخصصا في الادب المعاصر على اسس امتن وامكن وادنى الى مناهج العلم الصحيحة . وهو الى ذلك يحاول القصة فيكتب منها الهادف البناء كما في مجموعته « جراح شعب » ، ويعالج الخواطر المنسرحة فيدون منها طائفة غير قليلة تنم في غالبيتها على ان وراءها عقلا لا يهدأ وذهنا يفلسف امور الدنيا وعاطفة متاججة مشبوبة . وارجو الا يعد رضوان هذه الخواطر النثرية شعرا جديدا لانني اشفق عليه كثيرا من ان تناله اللعنات التي صبت على هذا البلاء الجديد الوافد في غير مناسبة واحدة .

ولقد تهيأ لي ان اقرأ معظم ما كتبه اخي رضوان ابرهيم، وفي وسعي ان اقول جازما ان هذا الاديب الكبير كبير برسالته ، كبير بآماله ، كبير بمستوياته الخلقية والفكرية ، كبير باجتهاده بل بجهاده . وعساه ينشر المطوي من نثره وبحثه وتحقيقه ، يحدوه نفس الصدق ويرعاه عين الضمير فيتقدم الصفوف لا بقوة المنكبين وشدة العارضين ، بل بأمانة العلم وموهبة الادب وعصمة الخلق .

القاهرة — وديع فلسطين

النيل

من ديوان «الوفاء» الذي يصدر قريبا

صفق طروبا وسل ما بين الحان … في السهل والحزن مصر وسودان
واستكمل السير نحو البحر مرتميا … في حضن واديك في شوق وتحنان
في بردة من دموع العين قد نسجت … عند المنابع او من ثلج لبنان
او بردة من سماء الصيف قد نزعت … زرقاء تلبسها في ام درمان (١)
واغضب وجد بنجيع الماء من غضب … فالغيث من عارض دام وغضبان
لولا تجهم وجه الماء ما ركدت … خيرات طميك في واد وقيعان
والبث قليلا بخزان باسوان … انا ادخرناك للجلى بخزان
وارفل عروسا تجلت في قلائدها … ما بين صفين من زهر وريحان
في موكب الطير والاسماك في شجر … دان تناوله ، صلصاله حاني
من «المعادي» (٢) الى «شبرا» (٣) اطل على … دارات حسن بنتها كف فنان
يا ليت لي دارة منها فاسكنها … حتى تقر بمرأى النيل اجفاني
او كان لي مثل طير النيل اجنحة … بها ترفرف روحي فوق اوطاني

هذي الزوارق في رفق تسللها … في ليلة البدر في ارجاء حلوان
خطت سطورا محاها الموج ، لو بقيت … روت اساطير عشاق وندمان
يحلو الغبوق (٤) بها ما بين غانية … وضرب عود وقيثار وخلان
هذي العذارى عذارى النيل في مرح … اقبلن يخطرن من جنات رضوان
رنت خلاخيلهن الصفر من طرب … يملن ميل غصون البان والزان
اقبلن يحملن جرات وقد رفشت (٥) … ثيابهن باذيال واردان
يا ليت لي نهلة من جرة حملت … شذا وماء لولهان وعطشان
هذي الصلاة فكل خاشع وجل … ينيب لله في صدق وايمان
هذي الاغاني « بهيلاهب » (٦) قد بعثت … اصداءها من سفين الكادح العاني

يا قاهر القفر هذي مصر ناهلة … من مائك العذب يروي كل ظمآن
يا ابن الدهور طويل العمر كم حدث … طويت من امس اجيال وازمان
عاصرت « خوفو » (٧) وموسى في نبوته … وعشت في الارض قبل الانس والجان
فهل رايت عظيما مثل « ناصرها » … موحد الصف من ابناء عدنان
سارت مياهك نحو البحر ضائعة … سدى فاعلى جديدا سد اسوان
يا موطن المجد كم من راية خفقت … على عبابك في عز وسلطان
يا ملهم الحب كم من غادة فتنت … اقيال فرس واغريق ورومان
ما الذنب ذنبك في عرس زففت لها (٨) … فاصبحت طعم اسماك وحيتان
بل ذنب قوم تعاموا في جهالتهم … فقدموها كتكفير وقربان

هبلي ضفافك فيها الوحي الهمني … شعرا وذا الماء اوحى لي باوزاني
عن الحمائم اذ تأتيك شاكية … اردد النوح في بؤسي واحزاني
مع البلابل اذ تغشوك شادية … اشدو فاطرب في شدوي والحاني
يا مخصب الارض يا راعي الذمام اذا … عدا البغي واخواني وخلاني
هذا وفاؤك للوادي واهله … اوحى الي وفائي « واسم ديواني »

---

(١) في البيتين اشارة الى فرعي النيل الابيض والازرق اللذين يلتقيان بالقرب من ام درمان . (٢و٣) المعادي ، وشبرا : ضاحيتان من ضواحي القاهرة . (٤) الغبوق : ما يشرب من الخمر في العشي . (٥) رفشت زينت . (٦) هيلاهب : غناء البحارة في مصروهم يشدون الحبال ويرفعون الاثقال . (٧) خوفو : احد بناة الاهرام من ملوك الفراعنة . (٨) كان قدماء المصريين يعيدون للنيل لوفائه في فيضانه فيزفون اليه كل سنة عروسا يختارونها بين اجمل العذارى وانبل الاسر ثم يلقون بها في النيل .

القاهرة … بولس غانم

كيف ينبغي ان نقرأ ؟

بقلم فرجينيا وولف

ترجمة يوسف عبد المسيح ثروة

* * *

اريد في المقام الاول ان اؤكد على اهمية وضع السؤال في عنواني هذا . ولو كنت قادرة على الاجابة بنفسي فجوابي سيتعلق بي اكثر من تعلقه بك . والنصيحة الوحيدة التي يستطيع احدنا تقديمها الى غيره بصدد القراءة هي الابتعاد عن النصح واستخدام غرائزك في الاستفادة من عقلك والاخذ بالنتائج التي تتوصل اليها . واذا ما اتفقت واياك على هذا الامر ، فساكون حرة لتقديم بعض الافكار والاقتراحات التي لن تسمح لها بتصفيد استقلالك الذي هو اهم صفة يمتاز بها اي قارىء (جدي) . وبعد ، فما هي القوانين التي يمكن ان توضع بشأن الكتب ؟ صحيح ان معركة واترلو قد اشغل اوارها في يوم معين ، ولكن هل ان مسرحية (هاملت) خير من مسرحية (لير) ؟ لا احد يستطيع الاجابة عن هذا السؤال . والاعتراف بالنقاد الثقاة وقبولهم في مكتباتنا ، والسماح لهم بارشادنا الى ما نقرا ، والاتكال على القيم التي يضعونها لما نقرا ، كل ذلك يدمر روح الحرية التي هي نفس الحياة في هذه الاماكن المقدسة (تعني المكتبات « المترجم ») . وقد نكون ـ في كل مكان ـ مقيدين بالقوانين والتقاليد ، ولكننا لا يجب ان نكون كذلك في هذه الاماكن .

ومع ذلك ، اذا كنا نتمتع بالحرية ، اذا كان هذا التعبير مقبولا ، فعلينا ان نتمكن من ضبط انفسنا . فلا ينبغي هدر قوانا بياس وجهل ، ورش نصف البيت بالماء بغية اسقاء شجيرة زهر واحدة ، ان علينا ان نمرن قوانا (العقلية) وهذه هي اولى الصعوبات التي تواجهنا في المكتبة . ففيها قد نجد مجموعة من الكتب المختلفة ثمة اشعار وقصص وتواريخ ومذكرات ومعاجم وكتب كتبت في كل اللغات دبجها نساء ورجال من مختلف الامزجة والعناصر والاعمار . .

فاين يجب ان نبدأ ؟ وكيف يمكننا ان نجعل النظام مستتبا في هذا الخليط المضطرب لننال اوسع المسرة واعمقها مما نقرا ؟

من السهولة تصنيف الكتب ، فهناك الرواية والسيرة الشخصية والشعر ،وبهذه الواسطة يمكننا الاستفادة من هذه الصنوف على حسب معطيات كل منها . واياما كان الامر ، فقليلون هم الذين يطلبون من الكتب ما تستطيع تقديمه . اننا في اغلب الاحيان نقبل على الكتب باذهان كليلة منقسمة على نفسها ، فنطالب الرواية بان تكون واقعية ، والشعر بأن يكون مزيفا « كاذبا » والسيرة بأن تكون منافقة والتاريخ بان يكون طوع افكارنا المجحفة المتحاملة

واذا استطعنا اقصاء كل هذه المفاهيم (القبلية) حين نقرا نكون قد بدأنا بداية رائعة . ولذا ، ليس لك ان تملي على المؤلف ما تراه بل كن زميلا له مشاركا في عمله . واذا ما انزويت وتحفظت وانتقدت من اول وهلة فانك تحول بين نفسك وبين الحصول على افضل قيمة ممكنة مما تقرا . اما اذا فتحت ذهنك على مصراعيه فستحملك علامات المهارة ودلالاتها ، بعد الاسطر الاولى،على المثول بين يدي كائن انساني فريد لا مثيل له . واذا ما تعرفت بهذا الكائن بنفسك فستجد ان ما يهبه لك او ما يحاول ان يهبه يدخل في اطار محدد من الوضوح والجلاء .

ان (فصول اي رواية) هي محاولة غرضها وضع كيان يشبه بناء من الابنية ، ولكن الكلمات اصعب مراسا من (قوالب) القرميد .

ذلك بان القراءة عملية اشد تعقدا من عملية الابصار . ولعل اسرع طريقة لفهم عناصر عمل الروائي ، هي الكتابة لا القراءة ، اي القيام بالتجربة بنفسك مستهينا باخطار الكلمات ومصاعبها . تذكر مثلا حادثة تركت انطباعا خاصا في نفسك ، كيف انك مررت في الشارع فرايت في احدى زواياه اثنين من الناس يتكلمان . اهتزت شجرة : ورقص مصباح كهربائي ، وكانت لهجة الكلام مضحكة يمازجها شيء من الاسى والحزن ، وفي هذه اللحظة قد تكمن رؤيا كاملة ومفهوم (ادراكي) شامل . ولكنك حين تريد اعادة تشييد هذه الرؤيا من جديد ، فسترى انها تتقطع اصنافا من الاف الانطباعات المتباينة .

فبعضها يجب ان يقمع وبعضها ان يظهر ليستعلي ، وفي غمار العملية ، قد ينفلت زمام (العاطفة) نفسها منك . وحينذاك عد من صحائفك الملوثة المبعثرة الى ما استهل به قاصون عظام من اضراب ديفو وجين اوستن وهاردي فستجد نفسك قادرا على استيعاب مهاراتهم وتقديرها حق قدرها . اننا حين نمثل بين هؤلاء (الاشخاص) لا نمثل بين اناس يختلفون عنا حسب بل اننا نمثل في عالم اخر . ففي قصة (روبنسون كروسو) لا ندلف الى طريق صالحة للسير ، فالامور تجري متعاقبة وكذلك الوقائع . ومع ذلك ، فاذا كان الجو الطلق والمغامرة تعنيان شيئا لديفو فهما لا يهمان جين اوستن قيد انملة . فعالمها يتمثل في غرفة الاستقبال ، حيث يتحدث الناس ، فتنعكس في احاديثهم شخصياتهم . واذا ما نحن عودنا انفسنا على غرفة الاستقبال وانعكاساتها تيسرت لنا العودة الى هاردي الذي سيلفنا بدوامته . وهناك نرى انفسنا محاطين بالمراسي تعلو هاماتنا النجوم (الزواهر) . وهنا يتعرض الجانب الثاني من الذهن الى النضج والتعرية ، واعني بهذا

الجانب الجانب المظلم الذي يسود في العزلة ، على الضد من الجانب المضيء الذي تكون له اليد العلياحين ينتظم الجلاس بالجماعة .

فعلاقاتنا ، اذن ، لا تمت بصلة بالناس بل بالطبيعة والمصير . ومع اختلاف كل من هذين العالمين ، فكل منهما منسجم مع نفسه . وخالق كل من العالمين معني بملاحظة آفاقه الخاصة ، ومع عظم التاثير الذي يمارسه علينا فهو لن يربكنا ابدا كما يفعل بعض الكتاب (الناشئين) الذين يعرضون ضربين من الواقع في كتاب واحد بعينه . وعلى ذلك فالتنقل من قاص عظيم الى اخر — من جين اوستن الى هاردي ، من بيكوك الى ترولوب ، من سكوت الى مريديث — يمزقنا ويجتثنا من جذورنا ، فنترامى هنا وهناك مبعثرين . ومن هنا فمطالعة القصص فن دقيق ومعقد . وعليك ان تكون متمكنا لا من مهارة الاستيعاب حسب بل من جسارة تصورية عظيمة اذا اردت ان تنتفع مما يقدمه لك القاص — الفنان العظيم .

ولكن نظرة عابرة على الرفوف ستعلمك بان الكتاب قلما يكونون « كتابا عظاما » وكثيرا ما تشير الكتب الى انها بعيدة عن الفن .

ثم ماذا عن السير والسير الشخصية ، سير اناس عظام منسيين ، ماتوا من عهد بعيد ، فهل ينبغي الامتناع عن مطالعتها لانها ليست « فنا » ؟.. فمن هم هؤلاء الناس ، وما هي اسماؤهم واعمالهم وافكارهم ومغامرتهم ؟ ان السير والمذكرات تجيب عن هذه الاسئلة ، وترينا كيف تناولوا شؤونهم اليومية ، في متاعبهم وفشلهم ونجاحهم وحبهم وما اعتور حياتهم من تقدم وتأخر حتى قضوا نحبهم ... اننا — بالانكباب على دراساتهم — نستطيع ان نجعلهم ينيرون لنا نوافذ الماضي ، ويمكننا مراقبة الراحلين العظام، في عاداتهم المألوفة ، حتى نحسب احيانا اننا اقرب ما نكون الى سرائرهم والى انفسهم ، فنستطيع بين آونة واخرى ان ننتزع مسرحية او قصيدة مما كتبوه فنقراها بحضور المؤلف نفسه .

غير ان هذا الامر يثير اسئلة اخرى ، فالى اي مدى يتاثر الكتاب بحياة الكاتب؟ — والى اي مدى ينبغي الاعتماد على مؤلف السيرة ؟ وما هو الحد الذي يجب ان نقف عنده ، حين يكون الامر متعلقا بعواطف المؤلف حين يكره وحين يحب ؟ وهذه الاسئلة تمارس ضغطا خاصا علينا فيما له صلة بالمذكرات والرسائل والسير ، وهذا ما يحملنا على الاجابة عنها بانفسنا، لانه ليس افظع من الامتثال بتفضيلات الغير في قضية شخصية محضة . ونحن نستطيع مطالعة اضراب هذه الكتب مستهدفين هدفا اخر ، فليس من الضروري تركيز الضوء على الادب ولا التعرف على مشاهير الناس ، بل علينا بالمرتبة الاولى انعاش قوانا المبدعة وترويضها ... ان كل ادب حين يشيخ يورثنا سجلات للحظات فانية وحيوات منسية ، قيلت بلهجات ضعيفة متعثرة مندثرة . بيد انك لو انغمرت في مسرة ما تقراه فستدهش حقا بل وستسحر بآثار الحياة الانسانية . وقد يكون من هذه الآثار رسالة واحدة ، فما اروع الرؤيا التي تهبها لك ! وقد تكون جملا قلائل ، ولكنها اوسع الآفاق التي تنجلي امامنا ..

اما تاثير الشعر فهو من القوة والهيمنة والنفوذ المباشر ما يحملنا على الاحساس بكل قصيدة من نتاجه. فما اوسع الاعماق التي نزورها ، حيث يتلاشى تعاقب الاجيال ، وبخلاف الرواية التي تتهادى في تدرجها وتتباطأ في عواقبها، فان الشعر سريع الوقع ، عميق الاثر . ومن هنا فالشاعر دائما هو معاصرنا ، ووجودنا عندما نتأثر بالشعر ، يتكثف ويتركز في لحظة معينة كأي هزة عنيفة من هزات العاطفة الشخصية . والواقع ، ان هذا الاحساس يبدأ بالانتشار في حلقات واسعة من طريق اذهاننا حتى يصل الى ابعد مشاعرنا ، ولما تأخذ هذه المشاعر بالاستجابة والتعليق ، تبدأ ذواتنا بالادراك المتمثل بالاصداء والانعكاسات . ومن هنا فان زخم الشعر يغطي افاقا واسعة من العواطف .

... ان فن الشاعر (عالم) واسع متباين ، في قدرته ان يجعل منا ممثلين ونظارة في الوقت نفسه ، وان يبدع منا (فالستاف) او (لير) وهذا كله يؤكد على تمكنه من تكثيف المشاعر ، وتوسيعها ووضعها الوضع اللائم بصورة تامة الكمال لا يعتورها نقصان ولا زيادة .

واذا ما قارنا ابياتا رائعة من نتاج شاعر من شعرائنا العظام بما نراه من هذا النثر المبتذل تجلى لنا بكل وضوح ماذا تعنيه القراءة من عسر وصعوبة . ان العملية الاولى في تسلمنا للانطباعات بفهم عميق هي نصف عملية المطالعة ، اذا كنا مقتصرين على كتاب واحد ، ولا يتم النصف الثاني الا بمقارنة هذا الكتاب بكتاب اخر . وهنا يحق لنا أن نصدر قرارات على هذه الانطباعات المتنوعة ، التي لا يجب ان تبقى اشكالا سائبة بل كيانات راسخة ثابتة . وهذا ما لا ينبغي حدوثه دفعة واحدة ، بل عليك بالتأني حتى يخف لهيب التناقض ويخفت اوار التساؤل ، وعندئذ ارجع الى كتابك الذي طالعته فستجده مختلفا عما الفته في مجموع كيانه ، لا كما رايته في مراحل مطالعته المختلفة ، اجزاء متناثرة . وهنا نجد التفصيلات تتلاءم في مواضعها ، كما نجد تكامل الشكل من بداية الكتاب الى خاتمته ... وهنا ايضا نستطيع ان نقارن كتابا بكتاب ، كما نفعل حين نقارن بناء ببناء .

بيد ان المقارنة هذه تعني تغيير موقفنا ، فنحن لم نعد اصدقاء الكاتب بل حكامه . وكما اننا لا نستطيع ان نكون اصدقاء عاطفيين اكثر مما يجب ، كذلك لا يجب ان نكون حكاما قساة اكثر مما ينبغي . (ومع ذلك فلنا ان نقول) : اليست الكتب التي تضيع اوقاتنا وتقتل عواطفنا ادوات جرمية ؟ اليس الكتاب الذين يدبجون كتبا مزيفة تملأ الاجواء بالانحلال والمرض ، اليس هؤلاء اعداء المجتمع

ظمأ

ابراهيم خير

ام درمان – السودان

رشي طيوبك فى دمـي — اسقي رحابي القاحلـه
اسقي العـروق فانني — صحراء .. روح ذاهلـه
صحراء .. لا من عابر — فيهـا ولا من هاطلـه
صحراء .. تحلم بالربيع يسوق فيها جدوله

محت الرياح خصوبة الر — ؤيـا .. فامبت ذابلـه
جمد الخرير ولم تعد — فى النبع .. عين سائلـه
ورمى السكون وشاحه — فوق الحياة الآهلـه
والطير عن غاباتنـا — الجرداء « الوت » راحلـه

لا تعبري .. فهنا الريا — ح تسد .. درب السابلـه
كم دوحة .. الوى بهـا — الاعصار .. كم من نازله
كم غنوة ، جفت على — شفـة تولول ثاكلـه
فالريح لم تترك لنـا — دربا يعود بقافلـه

الالداء ، لما يقومون به من افساد وتزييف وتضليل؟ فدعنا اذن نقسو فى احكامنا ، دعنا نقارن كل كتاب باحسن كتاب (من نوعه الادبي) ... فقارن مثلا القصص بـ (روبنسن كروسو) و (ايما) و (عودة المواطن) لان كلا منها – مهما كانت قيمته وعهده – جدير بالمقارنة . وكذا الامر مع الشعر ، فحين تذوي نشوة الوزن ويذبل بهاء الكلمات يعود الينا شكل رؤيا وهذا ما يمكن مقارنته بـ (لير) او (فيدر) او (المقدمة) واذا لم نقارنه بهذه المؤلفات فبغيرها من احسن الشعر ، ولنا ان نعلم ان جدة الشعر الجديد او الرواية الجديدة هي مزية سطحية محض ، وهي لذا لا تتغير مقاييسنا القديمة .

وبعد ، اليس من الحماقة التظاهر بان القسم الثاني من القراءة ، اعني المقارنة واصدار الاحكام هو من البساطة واليسر بساطة القسم الاول ويسره ، واعني فتح الذهن لاستيعاب الانطباعات المتجمعة التي لا حصر لها ولا عد . ومن هنا ، فالمطالعة تعني التوسع فى القراءة وحسن الفهم وجعل المقارنة وسيلة حية من وسائل الاستنارة والاستيعاب وهذه عملية صعبة ، واصعب منها ان نمضي قدما وان نقول : « لا يقدر الكتاب هذا لإنه يمثل ضربا من الانواع (الادبية او الفنية او الفلسفية الخ) بل لان له قيمته الخاصة ، فهنا يخيب فى مسعاه ، وهناك ينجح ، وهذا سيء وذاك حسن » ولاجل تنفيذ هذا الواجب ، يحتاج القارىء الى خيال وبصيرة ودراسة وهي خصائص قلما وهبت الى ذهن منفرد ، الى انسان واحد بصورة وافية بالقصد ، واذا ما وجدت فهي توجد على شكل بذور بدائية .

واذا ما كان الامر ، على هذا القدر من الصعوبة ، اليس من الاحسن ان نترك النقد للنقاد ، فهم احرى به واجدر؟ ولكن هذه الحال متعذرة ومستحيلة! فمهما حاولنا ان نغمر شخصيتنا فنحن غير قادرين . ذلك بأن فى انفسنا عفريتا يهمس فى آذاننا قائلا « انا اكره ، انا احب » واسكات هذا العفريت خارج عن ارادتنا . والواقع ، انه على مقدار حبنا وكرهنا يتوقف امر علاقاتنا بالشعراء والقاصين ، وكل شخص يقف بيننا وبين هؤلاء لا ينال الامقتنا . والحال كهذا حتى اذا كانت نتائجنا خاطئة واحكامنا ضالة . ومع ذلك ، فذوقنا ، عصب الاحساس الذي يثير الهزات فينا ، هو السراج الوحيد الذي يضيء جوانب حياتنا ، ونحن لا نتعلم الا من طريق الاحساس (الشعوري) واذا ما حاولنا كبت امزجتنا الخاصة حكمنا عليها بالخور والضعف والوهن . ولعلنا – بمرور الزمن – نربي ذوقنا ، فنجعله خاضعا لضرب من الضبط .

وكلما امعنا فى المطالعة ، فى ضروبها وانواعها ، من شعر ورواية وتاريخ وسير ، غدا العالم الحي ، فى ناظرنا اقرب الى التناظر منه الى التنافر ، واقل تحاسدا وابعد تاملا . ومن هنا نراه يحملنا على الابتعاد عن صوغ الاحكام سراعا، ويرينا اين تكمن ميزة بعض الكتب ، وكيف ينبغي ان نتدارسها بعناية ورعاية ...

يوسف عبدالمسيح ثروة

اربيل – العراق



Horacio Armani

قصائد قصيرة للشاعر هوراسيو ارماني

ترجمة عيسى الناعوري

* * *

يعتبر هوراسيو ارماني من شعراء الجيل الذي نشأ ما بين عام ١٩٤٠ وعام ١٩٥٠ في الارجنتين ، وهم جماعة من الشعراء الشبان الذين لهم مكانتهم ، ولشعرهم قيمته الفنية في بلادهم ، ولكن ادبهم لم يصل بعد الى الخارج . وقد ولد الشاعر في «لا بامبا» في الارجنتين عام ١٩٢٥ ، وانتقل طفلا الى عاصمة الجمهورية الفضية بوينس ايرس ، غير ان حياة المدينة لم تمح من ذاكرته ذكريات السهول التي ولد فيها، ولذلك تجتمع في شعره صورة القرية بتعبيراتها القوية اللامحدودة ، مع صور المرارة والإستسلام والالم . وقد نشر اول ديوان شعري له عام ١٩٤٨ بعنوان « هذا النور في مكان اقامتك » ونال عليها جائزة لجنة الثقافة الوطنية في بلده ، كما نال شهادة امتياز من جمعية الكتاب الارجنتينيين. ثم تلا ذلك ثلاثة دواوين اخرى هي : « الموسيقى المتطرفة » و « معرفةالبهجة » و « الحياة الدائمة » . وفي الحقل الصحفي يعمل ارماني محررا في جريدة « الامة » وهي من كبريات الجرائد الارجنتينية ، كما يساهم في تحرير عدد اخر من الصحف . وقد نال في اواخر عام ١٩٦٠ منحة ادبية دراسية في ايطاليا ، وهو يقيم الان في منزل الطلاب الدولي في روما ـ حيث تعرفت عليه بحكم الاقامة فيالمنزل الواحدـلدراسة الشعر الايطالي الحديث

صورتـــــان

الصورة الاولى

كلمة واحدة منك
تستطيع ان تنير حياة الاخرين
والبهجة التي تشيع من حولك
يبدو انها تقود الى بلد مجهول
فتحلق فى الهـواء
كذكرى لم ترسم بعد .
وباشارة منك
اراني اندفـع
حتى ابلغ الى دوائر لامحدودة
تنفتح فى السمـاء .
آه ! انت وحدك تعرفين
الاشراق ، والخـوف
اللذين يبعثهما الجمال غير المحدود !

الصورة الثانية

ابتسامتـك
لها بؤبؤان لامعان
ينظران الينـا احيانا
وفيهما دمعة خفية .
ونظرتـك تبـدو
ابتسامة زاعشة فقط
من ينظر فى مرآتها
تثير انفعالاته كآبة مرحة .
وفى الاعماق شحروران
يقولان على المدى : (لا !)

وحـــدة !

منذ زمن طويل وانا وحيد
واراني الان فى حرب مع نفسي .
فيا ايتها الوحدة ! انت غناء
من شحارير هاربة
وانت شيء من رماد
اشربه مختلطا مع الهواء
ولعلي اشربه حزينا
لانه لم يكن حبا او فرحا او قبلة .
لست ادري لماذا تتراءين لي احيانا
ناعمة كدفعة من الماء تحت الضياء
انت الحياة ، حياة الانتظار بلا امل
وانت الموت الذي نحلم به فى ازمنة اخرى
فغن ، غن فى المسـاء
ايهـا الصوت المتباعد
الذي يبعث على الخيبة
فانا مصغ اليـك ،
انني تلك الفراشة التي تحوم حول النار
ومن حرارة نورها لا يبقى غير الحريق

ذكرى منتصف اليوم

الطيور البرية كانت تمر متعاقبة
كظل ناعم على السهل المترامي
وكانت الريح تملأ الرحب
وتهبط محومة ، حزينة ، رحبة المدى
وفى ضياء الصيف يكاد ينزلق
العنف المضيء المنبعث من الاعشاب المحرقة
التي تترنح متمائلة فى مهب الريح ،
وكنت وحدي اراقب ذلك الالم الذي
لا ينتهـي
وكانت تجيء الامهار الصغيرة ،
ثم تقبل من بعيد الخيول الشاردة ،
بقاماتها التي ترتفع فوق الغبار وفوق
حرارة الصيف
وهي تصهل صهيلا عنيفا مستثارا .
وكانت شفاهها ، التي يكاد يلهبهـا
لهيب العدو ،
تسقي برغوة لعابها تلك الارض المجدبة
التي كانت من قبل حلوة ممرعة تحت
عدو الجياد السريع
كنت وحدي اتامل وارقب . تلـك
هي أرضي
ذلـك الجنوب الساحر .
وانا الان بعيد عن تلك الساعات المشرقة
حيث كنت اطوق بحب وهيام ذلـك
الجسد النحيـل
جسد البلد الاميركي الفتي . ولم اكن
ادرك ذلك يومئذ ،
ومع ذلك يتوهج كل شيء بجمال جديد،
والحياة، والبهجة، والارض اللامحدودة
كنت احس بها تصعد ، وتثب ،
وترتفع بعذوبة وحلاوة الى قلبـي
الذي يترقبها .
وكـان كـل شيء
شبيها بانغام الحب !

عمـان — عيسى الناعوري

كما تنحني رؤوس الاشجار الفارعة عندما يتساقط الثلج خفيفا هادئا ، احنت ام وفيق راسها فوق صدرها وغابت في لجة عميقة من التفكير . لم يوقظها من غيبوبتها الا زفرة داوية صعدتها دون وعي ، انتفضت معها كمن يتململ من عبء ثقيل ... واخذت تذرع الغرفة ذهابا وايابا ..

ـ ما بالك يا اماه لا تنامين ؟!

ـ لا شيء سوى الارق ياحبيبتي! لا توقظي اخوك ..

ـ وماذا اقلقك ؟..

ـ لا ادري !..

ـ امهدي الوسادة لاخويك انهما يقظان في نومهما على غير عادة ..

ـ ايزعجك هذا الغطيط ؟..

ـ ابدايا وفيقةبل يزعجهماويزعجك

ـ اتريدين قرصا من الاسبرو ؟

ـ شكرا يا عزيزتي !..

آوت الام الى فراشها بعد ان تدثرت بغطاء سميك من الصوف ، وتظاهرت بالنوم ، وفي راسها يدور الف سؤال ، دون ان تجد لواحد منها اي جواب مفعم .

الهي الم يكتفي بي هذا الشقاء حتى يشرك معي وفيقة ؟!.. ماذا ايقظها ؟!.. هل تنسمت شيئا من قلقي فارقت ؟.. يجب ان تنام ، فالليل قارب ان ينتصف ، كمايجب الا تدرك شيئا عن تصرفات والدها ، ولياليه وفيق الساهرة ، التي اخذت تمتد الى عمق الليل .. اريدها تبقى مشرقة الوجه ، صافية الذهن . اني احس صراحة بان الياس قد بدا طريقه نحوي .. وكيف اخفي واكتم هذا الكابوس الجاثم على باب صدري؟

يجب ان انتصر ، ولكن حرصي على الحقيقة ، يريدني الا اتغاضى عن رؤية رواسب الحياة ، وضحالتها مهما حاولت جاهدة ، اخفاء هذا القلق ، بتلاوة بعض آيات ارددها من صلاة راسخة في كياني .

آه الساعة تدق الثانية عشرة !..

وقع اقدام على الدرج ، ينشق الباب بلطف فيتقدم وفيق بتؤدة دون ان ينير المصباح .

ـ اهذه العودة يا وفيق ؟..

ـ لست متاخرا يا اماه ، فالساعة الان تشير الى العاشرة فقط !..

ـ أتعتقد انني نائمة ؟.. وتجيز لك ذلك ؟..

ـ الا يزال والدي في سهرته ؟..

ـ نعم !.. لا توقظ اخويك وشقيقتك !.. تصبح على خير !..

ـ وعلى خير !..

كلمات باردة لفظتها ، الساعة العاشرة الان !.. الساعة العاشرة الان !..

منذ متى يجيد هذا التمويه ؟.. عهدي به يحتقر كل متلون صفيق الوجه !.. يا للخيبة المريرة !.. آه من الحياة .. فالعشرة الرديئة

عود الى الحقيقة

بقلم محمود الحسنية

قضت على كل آمال الغد .. لم اشك يوما ان وفيقا يخرج على طاعتي ويقضي على بقية هنائي البيتية ..

الهي لو علم المرء ان غبطته في هذه الحياة تكون من احترام متبادل لما اتلف بيده هذا الشيء المقدس ! هناك امور محزنة دون ريب لا استطيع ان اتصورها .. ابتعد عنها فتلاحقني ، وتأبى ان تفارقني ، او تترك لي مجال التفكير لاواجهها باعصاب قوية .. وكثيرا ما اراها تضعف وتهزل ، وتضمحل ، ولكن سرعان ما تنتصب امامي كالمارد في قارعة الطريق ، تذعرني ، وتجعلني ارتجف من شدة هولها ، وافقد معها كل شجاعة !..

قصة

آه حين يفقد الانسان ايمانه ويتنكر للفضيلة ، كيف يمكنه ان يعود الى حقيقته ويعي طريق السعادة ؟.

ان وفيقا هو الاخر قد تنسم اخبار والده ، وعرف كما عرفت ، ان هذا التاخير المتواصل لم ينتج عن عمله في المتجر ، بل تسببه اعمال غير تجارية تشغل فيه حيزا من التفكير!.

اجل فالقلب هو الذي يجعل المرء يشعر مسبقا ، بوجود بعض الاحداث احيانا ، دون ان يراها ، كما يجعله يشعر بوجود الخالق ...

واخيرا نامت ام وفيق ، وفي عينيها دمعتان حارتان، تدحرجتا على وجنتين موردتين ، اذبلهما السهد ، بعد ان فتح سليم باب المنزل بمفتاحه الصغير ، وكعادته مشى ببطء دون ان يكون لوقع حذائه الجديد صوت في ارض الغرفة ، لانه يابى ان يجعل من زوجته الفاضلة مثار شك فيه .. انه في وضع عائلي يحسد عليه في بلدته ، وهو وريث بيت علم ووجاهة، يريد ان يبقي على هذه السمعة الطيبة.

وفي الصباح استيقظت نبيلة باكرا كعادتها ، تهيء الفطور وتعده .. ولكن اعياء كبيرا بدا في عينيها الملتهبتين ، عندما شخصت من خلال زجاج النافذة ، في الفضاء ، ولم يعد وجهها متوردا ، بل ذهب لونه وشحب ، ونمت عليه حركة بليغة ، تعبر عن كآبة خرساء ..

ما اجمل هذا الطائر وما اهناه فوق عش افراخه ؟!.. اذا طار عاد جذلا ، وصفق بجناحيه . انه تعبير لاقصى سعادته !.. يا للهناءة !..

وادارت ظهرها فرأت سليما امامها ... ولاحظ فيها بعض الاجهاد والتكلف :

ـ ماذا تراقبين يا نبيلة ؟

ـ لا شيء فالطبيعة باسمة !..

ـ ولكنك لا تبتسمين !.. فالطبيعة الضاحكة يقابلها السرور والانشراح ، وعهدي بك طلقة الوجه ، باسمة ، حتى بين الدموع ، يجب ان تبتسم

للحياة ، للالم .. واذا انتفى الالم من على هذه الارض ، لم يعد للحياة من معنى ...

ـ ابدا يا سليم لاشيء يزعجني .. فاني رايت عصفورا صغيرا يسقط من العش فتالمت لسقطته !..

ـ اما يزال على الارض ؟..

ـ لا ! بل تعاون عليه طائران اعاداه الى عشه .. اعددت لك الفطور !..

ـ في اي ساعة استيقظت يا نبيلة ؟ ...

ـ منذ ساعة .

ـ يا لك من زوجة مثالية ،فاضلة، اسمك النبيل ينطبق على صفاتك النبيلة .. انني اشعر بدف السعادة كلما دنوت منك . لماذا لا توقظين وفيقا وهياما ومنذرا ؟..

ـ دعهم ينامون فاليوم هو اول يوم في عطلة الفصل الثاني من السنة الدراسية ... اذكر ذلك الان !.. هل اطلعت على نتيجة دروس الفصل يا سليم ؟..

ـ لا !..

ـ هيام ، الاولى في صفها الابتدائي الخامس ... منذر الرابع في صفه الابتدائي الثاني ..

ـ ووفيق ؟.. هل يحتفظ برتبة جيدة ، في صفه الثانوي الرابع ؟..

ـ لا ادري !.. سمعته يتحدث مع رفيق له : لا باس فسوف نعوض عما فاتنا ، في الفصل القادم ، لا يزال امامنا متسع من الوقت ، للدرس ، وتخطي علامة الرسوب ، والمرور ..

حقا يا عصام فقد اضعنا من وقتنا ، في دور السينما ، والملاهي ، وفي الثرثرة .. انني اشعر بتفاهة ما يعرض في تلك الدور من افلام ، فانها وان تنوعت الاسماء ، تتشابه من حيث ديباجة القصة وكانها تسير كلها في ركاب فلك مشحون بطلاب لذة رخيصة ، تنقل الينا احاديثهم وصورا عن شذوذهم ، وحياتهم ، ورائحة فجورهم ، مشاهد لا تنتهي الا بانتهاء الطوفان ، وتحطيم فلك الرحلة !..

ـ حقا ما يقولان !..ما اسمى ما يقدم المنتج السينمائي الفنان ،مشاهد عن سير ابطال خالدين ، نحيا معهم ، في مآسيهم ، في كفاحهم ، في انتصاراتهم فنتخذ من حياتهم عبرة ..

انني الان وعيت هذا الانحراف الجارف وراء المباهج ، والملذات .. وعيت ان الانسان ، اذا جلس الى مائدة ، لا بد له ان يتناول من الاطعمة المنوعة ، الطعام الذي يثير فيه شهيته اولا .. وتلك الافلام او المسرحيات التي تشاهدها المدينة، انها تؤلف غذاء الفكر ، كما يؤلف الطعام المنوع ، غذاء الجسم !..

ـ وهذه المنشورات ، والمشاهد من الافلام ، هل تصلح كلها ان تكون الروح والفكر غذاء جيدا ؟!.. الجواب يرويه ويعبر عنه اكثر من طالب وطالبة، واكثر من زوج وزوجة .. الم تسمع بصرخات قادة الاصلاح في العالم تطالب بالكف عن ترويج هذه التجارة الفاسدة ؟.. الا تقرني رايي يا سليم ، ان في هذا الغذاء الفكري ، ما يثير الغرائز البهيمية ، ويفسد الضمائر ؟.

ـ انني اقرا من خلال كلماتك النابضة عين الحقيقة !..

ـ وفيق عهدي به تلميذ ، يقدر غاية العلم ، علامات الاجتهاد ، والجوائز المدرسية كانت غالبا من نصيبه في الامس القريب .. اين هو من امسه ؟.. كيف يمكن ان يعود الى سوي السبيل !..

ـ الا تقرني ، ان مغريات المدنية الزائفة هي التي تجتذب اليها الفريق الاكبر من الناس ؟..

ـ اجل !..

ـ وهل يمكن لمن يحيا حياة يشوبها الشك والفتور ان يكون قدوة خير لغيره ؟.. ان العالم يسير بركاب هذه المدنية الزائفة ...

وهل نستطيع ان نركن الى المدرسة مهما كانت قدرتها الخلاقة في تربية صالحة . دون ان نتعاون معها في تدعيم خلق الابناء ؟!.. على عاتقنا مسؤولية جسيمة ..المدرسة تبني اذا كان هناك اساس وطيد !.. فالولد لا يرقى الا في محيط راق . ولا يكون فاضلا الا اذا نشأ في بيئة فاضلة !..

ـ كفى يا نبيلة !.. الا يزال الشاي على الطاولة ساخنا ؟..

ـ اجل !..

ـ هلمي نتناول معا الفطور .. انني اشعر براحة الضمير ، كلما عدت اليك بشيء .. واذا كان لنا من سعادة ، فاليك تتصل الاسباب .

الساعة الثامنة ، حان موعد ذهابي الى عملي !.. ايقظي وفيقا ، علّه يساعدني بعض الشيء في المتجر !.. انني ذاهب الان . فالى اللقاء !..

غابت نبيلة في حلم جميل، تردد : ما اجمل الحياة في ظل عائلة تتبادل الحب والاحترام !.. انني اشعر بالدفء يعود الي ..ومن خلال شرفة المنزل ، رنت ببصرها الى البعيد فرات السماء صافية زرقاء بلون عينيها ،والطيور مرحة ، تغدو ذهابا وايابا ، تصفق باجنحتها ، وتغرد فرحة بطلائع الدفء في الطبيعة ، فركعت ثم تمتمت بصلاة قصيرة لمجد الخالق . وكان فيضا من سعادة سماوية ، حلت في ارجاء البيت ،حيث غدا وفيق طوع ارادتها ، ينعم برضاها ، يساعد والده في المتجر يوم العطلة ، وفي المدرسة استعاد رتبته ولمع اسمه مقرونا بالجد والنشاط.

ومع العودة الى العمل ، ادرك ابو وفيق ان لذة اللهو والعبث ،والمجون زائلة .. واللذة الحقيقية هي في اجواء العائلة السعيدة ، وان المرء لا يمكن ان يكون مرشدا ، الا اذا كان يتمتع باخلاق فاضلة .. فالابن يرث الاب ليس بالجسم فقط،بل بالاخلاق. والمربي يجب ان يكون ارفع اخلاقا ممن يرشد ويثقف ، كما ادرك ان الزوجة الفاضلة هي اس السعادة البيتية ، اذا كانت سعيدة اضفت على البيت شيئا من سعادتها ..واذا كانت شقية ، نفثت فيه من سمومها، فجعلته جحيما لا يطاق .

ذكريات مؤلمة

ملِلنا سئمنا
حتى الربيع والزهور
حتى غناء الطيور
حتى انبثاق الماء من نافورتنا
لم يعد ما يدخل البهجة الى قلوبنا
رتابة مملة
لم نعد نفرح لتفتح
الورود فى حديقتنا
وهذه الياسمينه قد ازهرت
وانبعث اريجها يملأ منزلنا
فاين مقاعدنا التي كنا نصفها فى الحديقة
تحت هذه الياسمينة
اين ذلك المقعد الكبير
الذي كان يجلس عليه ابي
يضيء حياتنا بوجهه البشوش
ويبعث السعادة فى قلوبنا
المكان خال هذا العام تحت الياسمينة
لقد رحل ابي

رحل من كان سر سعادتنا
ومن علمنا حب الزهور والورود
رحل واصبح مقعده الكبير
فى وحشة كئيبة
ومقاعدنا ايضا خالية وحيدة
تنظر الى الفراغ بحزن وصمت
كم شهدت عريشة الياسمين
جلساتنا المرحة .. فاين سعادتنا
واقبالنا على الحياة
رحل ابي ورحلت معه كل بهجة
فيا شجرة الياسمين لا تزهري بعد الان
ويا ايتها الزهور والورود لا تتفتحي
وانت ايتها الطيور لا تغردي
اما انت ايتها المقاعد الجامدة هناك
تحت الياسمين فابقي كما انت خاوية
فالراحل لن يعود

الرياض — سارة بوحيمد

وفى المتجر رن جرس الهاتف ..
الو !.. من يتكلم ؟.. رمزي !..
اخاطبك من المرسم ، حيث اعد لوحة
الخمس فيها كل ذرة من كياني ،
ساقدمها الليلة الى « ديانا » انسيت
موعدنا فى « الايف » يا سليم ؟..
ــ لا ولكني على موعد اخر !..
ــ هل لديك سهرة اجمل مما نعد؟
ــ اجل !..
ــ وهل اجمل من ليالي «الايف»
وفاتناتها ؟..

ــ نعم !..
ــ اين نجدها ؟ ..
ــ فى البيت الحالم !..
ــ الس فى مجرى حياتك بعض
التحول !..
ــ اجل فقد علمتني الحياة
وتجاربها ان كل لحظة تسير بنا الى
حتفنا ويجب ان نبادر الى ترميم
قوانا المتداعية ، حتى تستمر شعلة
ايامنا المشرفة على الخطر ، ويكون
فى مكنتها ان تتوقد من جديد ..

انني عرفت حقيقتي ، وعثرت على
ضالتي يا رمزي .. ووعيت ان اللذة
التي كنا ننشدها زائلة .. بل ما
كان اضلنا فى طلبها !.. والى ان تعي
حقيقتك اطلب لك امراة فاضلة !..
تعلمك ما تستحبه النفوس العالية ،
وما يجب ان يكون ذلك المستحب من
امل يتحقق فى طريق العدل والصدق
.. نخلود الذات امل !..

محمود الحسنية

عـــتـــاب

***

تشاءُ او لا تشاءْ
مرغماً
او برضاكْ

عبدّت لك الطريقْ
فأحببتني
لما هويتُ سواكْ

أرأيتني متعبةً
فخفتَ على رؤاكْ
ام قبلتني
فأدميت شفتاكْ

انا لم اجرح خدي
دغدغتُ حلمي
وتركتُ الشوكَ
لهواكْ

اغمضتُ عيني
ورحت في مدى
رؤاكْ

ولما استيقظتُ
من حلمي
كنتَ
انت سواكْ

فدعني
انا
ما قبّلتُ فاكْ

لو شئتَ
لما عفّرتَ جبينكَ
وحطّمتِ
ما خلقتْ يداكْ

البير اديب